حديث الذُّرا

روايـة

حديث الذُّرا

وهيب سراي الدين

حديث الذُّرا
تأليف: وهيب سراي الدين
سنة الطباعة: ٢٠١٠.
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.
الترميز الدولي: ISBN: ٩٧٨-٩٩٣٣-٤٣٩-٤٠-٨
جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:
دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:
دار مؤسسة رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا -- دمشق -- جرمانا
هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ٠٠٩٦٣١١
تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ٠٠٩٦٣١١
ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

الإهداء

....

....

..إلى أولادي..

وهيب

ما يشبه المقدمة

ربضـوا بباب الشـرق خير ضـراغم

تحمي العرين، فـأين منــه الأبلق؟

غنّت ســـيوفهم أنـاشـــيد شـــجَت

قلـب العروبـة واســـتعز المشـــرق

فـإذا مشـــــت بيض العمـائم للوغى

حُمَّ القضـــــاء فكـل شـــيخ بيرق

وفتــاهم يلقى الجموع مجــازفــاً

فكــأنمــا تحـت الـعبـاءة فيـلق

وإذا الكريهة شـــمّرت عن ســـاقها

كرّوا، وفي أفق البطولـة حلّقوا

يمشـــي الـدم العربي في أعراقهم

صـــرفاً صـــراحاً والدليل المنطق

فهم ذوو الجبـل الطويـل نجـاده

حـلّـوا ربـاه فـي ذراه تـعـلّـقـوا

مارون عبود

الفصل الأول

تصميم

كانت شمس الظهرة تضرم النار في ذاك المكان....

أجال حوله نظرة صـــارمة، كما ينظر الصـــقر إلى بجعة. كانت تقاسيم وجهه قد توترت، فزادته جهامة:

- أنا لها، بضـــربة ســيف واحدة. (العطفة) لي. هي كســـبي وأيم الله.... /صـــاح الفارس الهمام، بجملة من فرسان كوكبته.

والتمع بيمينه سيفه القرضاب. ثم تابع:

- الضـــربـ-ة لا أثنيها من زن-دي اليســـرى، وأنا الأعسر، المل-قب باليسراوي!...

اهتـاج وزمجر أكثر: ســـأحزّ رقبـة (قـائد النـاقـة) وأحوزها.... أفسحوا لي المجال.

ثم فطن:

أتسمح لي، يا عمي الشيخ؟

إيماءة يسيرة من رأس الشيخ المعمم، المتقدم بجواده - كقائد - سمحت له. فثبّت سرج حصانه (الصميدع) ثانية بإحكام. ثم وضع قدمه في الركاب. وقفز فوقه كالمارد، لكزه بمهازيه وألهبه سياطاً. انطلق الجواد العدّاء بسرعة السهم صوب الهدف. وقد نصب فوق رأسه أذنيه كعصورين صغيرين، ليسدّ برقبته صدر فارسه المقدام. بَانَ الفارس، كنسر كبير حط من علُ فجأة، وهو غائر نحو صيده. لقد اختفى لون تلك الكوفية البيضاء التي كانت تكلل رأسه، بعد أن عفر غبار النقع لونها الناصع. كان ما يزال مثار المعركة الضارية، يشكّل في الفضاء قتاماً رمادياً.

جنّح الفارس على سرج (الصميدع) المحجّل وغام. أخذت المسافة تتناقص بسرعة البرق. حوّم حول الناقة (المهودجة).

لم يب-ال (بالدنادش) والنمارق التي جللتها. بل عينه على الغنيمة الثمينة صـــاحبتها. ســطعت حين أطلّت من داخل هودجها تبهر العين كشمس تتلألأ في أيام الربيع.

دار الفارس المشـدوه، بحصـانه المبلل بالعرق حول الناقة كرحى يدور حول محوره. أنذر قائدها:

- اترك العنان لابن جزان.

ولكن حدثت حرتقة مريبة. حركة (طبنجة)، كادت تودي إلى طلق ناري فظيع.

- إذن، خذها من صارمي البتار، يا خائب الحظ.

وكانت ضــربة سـيف ماهرة، من يد حاذقة. طوحت بالجمجمة بعيداً. لقد برى رهيف الشفرة الرقبة. كما يبري السـكين القاطع (خيارة). ظلت الجثة في المكان. والرأس المقطوع، طار إلى مكان آخر، كطريدة رم-اها صـــياد بارع في مهن-ته. ثم انتخى. فالتمع فوق رأســـه ســـيفه الصقيل، كما تبرق مرآة، تحت شعاع الشمس.

حدث لغط وهياج في صفوف العسكر.

بينما كانت حماسة عارمة تلتهب في الخلف:

- احموا ظهر فارسنا الشجاع....

فتعــالــت حمىّ الحنــاجر. وتلامعــت (الهنــادي - السـيوف). كـأن بروقـاً ترافق قصـــف رعود، في يوم ادلهمت فيه الغيوم.

ترجل الفارس، وحاش ناقة الهودج. ثم قطر عنانها بسـرج حصـانه.((أي نوع من الأشـباح هذا الفارس))؟ فكّرت صـــاحبة الهودج، قطع الفارس تفكيرها: ((أن-ت بحم-ايتي)).

كان أمراً مرعباً أن تسمع العطفة صوتاً كهذا، يصدر عن إنسان صاحت سليقة.

- أنا (دخيلة) الفارس العربي الشـهم..... أنا بحماكم يا أهل الجبل..

غريزة الحياة جعلتها تتكلم. لهثت وتابعت:

- أنا عربية من فتيات حوران..... نحن جيران.... أنا بحمى الرجال الشجعان... أنا...

قاطعها الفارس البطل. وكانت قد أطلت عليه. من مركبة الهودج. فتاة تتلألأ كملاك:

- أنت في أمان.

هزّ سيفه ثانية، وابتسم. بَانَ لها واضحاً، بوجهه الحنطي، ذي العذارين الأسودين:

- لا يصيبّنك ضيم، ولا يطالنّك حيف، عندنا.

- سلمت يمينك أيها النجب!.

وأشاحت له بيدها الفارعة.كانت مثل مجسم صنع من عاج، وشعت لامعة من نافذة الهودج. حرقص الفارس حصانه (الصميدع)، حتى شب على رجليه. ورفع قائمتيه الأماميتين. وراح (يتحنجل). كأنه واحد من أحصنة ساحات الأهرامات بمصر. ألاح الفارس سيفه للمرة الثالثة، حتى رشح آخر قطرة دمٍ.

وحين سمع تكرار: ((أنا عند أهل الجبل دخيلة....)). هدر بانفعال:

- اطمئني يا ذات الصون.... أنت أخت.... لا يمسك، عندناٍ، سوء بعون الله تعالى... ولو كنت من اسطنبول... / توقف وهو يلتعج حمية. ثم تابع:

- هكذا تكون حال الدخيلة، عندنا، يا أخت.

حينئذٍ انفرجت في الوجه المؤطر ابتســامة مشــرقة، كأنما شع كوكب:

- أنتم أهل مروءة وشهامة....

تقدّم الفارس بحصــانه الذي ما زال يشــارك صــاحبه فرحـه، بحركـاتـه البهلوانيـة. وقـاد النـاقـة. التفت نـاحيـة فرسان كوكبته:

- أيها الأخوة، قلت، العطفة غنمي. بل ضيفي.

- هي وديعة عندك، يا وهبة جزان.

- الوديعة وديعة الله.

ثم انفرد صوت جهير، هو صوت قائد الرجال:

- ســـرْ بضــــيفتك، يا وهبة إلى ببتك. وحافظ عليها كأمانة غالية.

- ولكن يا شيخي جاد الكريم....

- لا تكمل الرجال يسدون فراغك في المعركة، طالما أنت في مهمتك النبيلة.

غير أن الفـارس ظـل مغتـاظـاً، من نفســـه، بعض الشيء، فتقدم منه الشيخ جاد الكريم، وشدّ على يده، فوق ظهر جواده المحجل:

- اطمئن، يا وهبة، كل واحد منهم وهبة جزان.

في الحال، ترك الفارس ســاح المعركة، ويمّم شــرقاً شطر قريته قنوات، الواقعة في لحف الجبل الغربي، يقود خلف (الصـميدع) ناقة الهودج، والعطفة ما زالت جالسـة في خدرها. وقد أسـدلت عليها، من جديد، سـتارة النافذة، كمن يسـدل سـتارة، في مشـهد مسـرحي، ليسـتأنف مشـهد آخر. وحرمت نفسها مناظر سفوح الجبل الأخّاذة، الغارقة في أجمات البطم والسنديان.. و...

من المؤكـد ظلـت أفكـار مزعجـة تتردّد في نفس الفارس وهبة جزان. عكّرت مساحات الفرح التي انداحت في داخله. لقد خالجه شـــعور الندم. بل ال-ذنب. ورســـم على وجهـه إمـارات جهمـة: ((كـان يجب عليّ ألا أترك كوكبتي، وهي ما زالت تخوض غمار المعركة...)). نفخ نفساً عميقاً وتابع: ((ولكن الشيخ القائد سمح لي...)).

ثم أقنع نفسه أكثر: ((قيامي بواجبي تجاه هذه الضيفة ـ الأمانة يعادل غيابي في القتال....)).

واستمر يجمجم بين أسنانه بعض الوقت، علّه يخفّف مما هو غارق فيه...

بينما كان المقاتلون من أهله يخوضون معركة حامية دارت رحاها، منذ انبلاج الفجر، بينهم وبين الحملة العسكرية العثمانية.

أجل. كانت نتائجها قد استبانت، بعد الظهر، ورجحت كفة ميزانها لمصلحة أصحاب الأرض. إذ حلت بقطعات هذه الحملة هزيمة نكراء. بعد أن تكبدت الخسائر الفادحة بالعتاد والرجال. بل عاد وانتهى حسمها، حين قاربت الشمس على مغيبها وضرّجت الأفق البعيد، بخضاب زعفرانها. كما ضرّج المقاتلون الأشاوس أديم الأرض، في خراج قرية (قراصة)، بخضاب دم العسكر، الذين لم يستطيعوا الانضواء تحت الرايات المنكوسة إلى الأسفل، ومناديل الاستسلام البيضاء المرفوعة إلى الأعلى، لدى فلول الكتائب الممزقة

المدحورة، وكأنهم نفذوا إيعازاً تلقوه، سليقة،لينجوا بأرواحهم ويرهبوا: ((رعائل، إلى الوراء سرْ)).

في أثناء ذلك ساقت الرياح غيمة بيضاء كبيرة، كسفينة ضخمة. قد تشربت بحمرة الشفق. وأخذت تتماوج، في الأعالي، بألوان الغروب وبألوان ما امتزج به أديم الأرض من الدم القاني.كأن الطبيعة تصرّ في معمعتها الكونية الكبرى هذه، على أن تظهر ما لديها من جمال فتان، بحياديةٍ تامة. لا كما دار في معمعة بني البشر المشحونة بروائح الدم والبارود.

على كل. عاد المقاتلون، في المساء، يحدون، على وقع سنابك خيلهم، أهازيج نصرهم:

((لو فزعنا، وتكامل فزعنا لو مشينا نفك الطلايب))

((وبالمعارك حقوقنا انتزعنا حطّمنا الجيش سيطرنا عالكتايب))

((........................... ....))

الفصل الثاني

المخبر الصادق

كانت أخبار الحملة العثمانية القادمة، لاحتلال الجبل، قد وصلت إلى مسامع الشيخ جاد الكريم، وهو جالس في صدر مضافته، أمام نقرة دلال القهوة المرة. وصلت إليه من مخبز صادق. لقد نقل له (خبرها). صديق حميم. كان قد عقد العزم على أن ينقل المعلومات عن الجحافل الجرارة، من القوات العثمانية، المتمركزة في نواحي (ازرع) بحوران، استعداداً للهجوم على الجبل، وقد جهزت بكل أصناف الأسلحة والعتاد:

- دعني أرحب بك، بحرارة يا بن قنديل.... أواه... ويك! لقد كبرت وتغيرت كثيراً.

- العمر يمر كومض البرق، يا شـيخ جاد الكريم! / تنهد الضيف الصديق وتابع نقل المعلومات:

- صـديقي. طوابير مطوبرة، من العسـاكر المزوّدة بالمدافع - (الطوبات) والطبنجات... والغدارات..../ زفر نفساً طويلاً، ثم:

- إضـافة إلى قوافل البغال المقطورة خلف بعضـها بالمئات، المحملة بالمؤن والذخيرة والعربات.... / سـكت قليلاً واستأنف أيضاً:

- قائد الحملة والٍ جديد بدمشـق. يقال له محمد باشـا القبرصي... إنه شديد الخبث. ذئب في جلد إنسان...

لم يجب الشيخ جاد الكريم ببنت شفة. بل ظل صـامتاً يتأمل في وجه صـديقه الضـيف، دون رؤية لا شـك أنه اسـتخدم ما عرف به من روية. فهو المعروف بالرجل الحكيم، الذي يتعامل مع الرزايا التي اعتاد عليها في حياته بالعقل الرجيح واللماح. نهض، من مكانه. كانت قامته مديدة، ومنكباه عريضـين. يدّرع جبة سـوداء تحت العباءة الفضفاضة. ويعتمر لفة بيضاء على رأسه الحليق.

تغطي صــدره لحية غزيرة. وخطها الشـيب في أكثر من مكان. تحرك يدرج جيئة وذهاباً، في أرض المضــافة ذات الحجر المصـــقول كالبلاط. حقيقة نقل على رجليه جس-ماً عب-لاً ثقيلاً، فظهر كرجل جبلي صـــميم. ثم توقف، وأطل من النافذة، يســـتجلي الأفق الغربي، كمن ينظر بمنظار. بانت تحت عينيه بيوت قريته (الســـهوة) المتدرجة تحت باصــرتيه، كمصــاطب متلاصــقة، على سفح الهضـبة. أمعن في النظر، وهو يهز رأســه بعمامته. اســتمر بوقفته تلك، والصــمت ينســج شــراكه. ثم فطن، فبســـمل وتلا فصـــولاً حكمي-ة، غام في معانيها، وانعدم وزنه في معراج روحه.

بقي واقفاً جثـة لا غير. ولم يعد إلى وعيـه، إلا حين فاجأته سعلة، نفخها بقوة في كفه، وحرك أرنبة أنفه، فعاد إلى نفســه. عاد إليها من جديد بمنظور تفكير موضــوعي واقعي، كرجل دين وكقائد في مجتمعه:

- عفواً... اعذرني، يا بن قنديل....

وانحنى على دلة القهوة. سـكب فنجاناً سـاخناً، وقدمه لضيفه:

- تفضـــل.... على الرحب والســـعة، أيها الصـــديق الخُلوص...

- اجلس يا شيخي.

- جلستُ.

وجعل يفكّك أزرار جبته التي ضاق بها صدره.

ثم نطق الضيف:

- اعلم أن صـــداقتي لكم يا شـــيخ جاد الكريم، دفعتني لأختلس نفســـي بلي-لة لا ضـــوء فيها، كأنها إحدى ليالي حكايات الجن حتى أباكركم. وأحذركم من هذه الحملة... توقف قليلاً وصمت ثم نطق:

- تذكرت كأنني قلت لكم صـــداقتي.... نعم. الصـــداقة أمانة عند (الغانمين) الكرام.

رشـــف قوته. وأخذ يتمم ســـرد مشـــاهداته لجحافل (الحملة) العتيدة، حتى يعزز أمانته أكثر:

- مســـألة الحملة لم تنبع من خيال أو وهم. إذ راقبتهم من أعلى (عليّة) في قريتي (رخم)، وامتقع وجهي، وهم يتمركزون في نقطة تجمعهم -- إزرع - حيث كانت

الكتائب والسرايا تتوافد متالية بـ- (مرشٍ) عسكري منظم لتحتشد، ثم تنطلق إلى جبلكم..../ شهق نفساً طويلاً، وتابع:

- لذا أُراني، قد قطعت هذه المســـافة ما بين (رخم) و(الســـهوة)، في ليلة واحدة. وأنهيت إليكم (الخبر)../ ثم سكت.

الشيخ جاد الكريم شهق، بدوره، نفساً عميقاً وأخرجه زفيراً كاوياً، كأنه أخرج روحه معه. منذ فجر حياته، والحرب والعدوان والسلطان يرافقونه:

- أوو... ف ف!... ماذا يريد سلطان بني عثمان منا، يا بن قنديل ؟

- السلطان لم يعلمني ماذا يريد ؟

ابتســـم الشـــيخ جاد الكريم، على الرغم من الظرف الصعب الذي يمر به. وتابع بألم:

- أنا أعرف أننا، نحن أهل الجبل، لم نعتد، قط، على عشيرة أو دولة، خلال تاريخنا الطويل. بل كان دأبنا، وما يزال، أن نرفع الاعتداء عنا....

تأوّه، واستأنف:

- حقيقة إنني أرغب في أن أعرف ماذا يريد منا هذا السلطان، وواليه الجديد في دمشق؟ / وألاح برأسه ولفته، تذمراً، عدة مرات.

رد ابن قنديل: قلت لكم لا أعلم.

ضحك الشيخ جاد الكريم بقهقهة مسموعة هذه المرة - الضيف يجيد النكتة -، وقال:

- على كل حال. اسمح لي أن أقدم خالص شكري لك، على خدمتك يا صديقي. وسأنقلها إلى أهل الجبل كافة....

ثم توقف قليلاً عن الكلام، ليخلل لحيته بأصابع يده اليمنى. ثمة حِكة طارئة. عاد وانتبه فأكّد:

- هذا المعروف ليس غريباً عن شأنكم، يا أهل حوران. فالجبل والسهل صنوان، ونحن وإياكم جيران....

- للجوار حقوق وواجبات. / أجاب ابن قنديل ؛ وتقلقل في مكانه. ليغير جلسة التربيعة، أو ينهض.

- لا تـذهـب قبـل أن تلتقم شـــيئـاً من الطعـام. أراك تتضــور من شـدّة التعب والسـهر. ويجب أن تنام أيضــاً. طوال ليلك تمشي.

****

وهذا ما حصل؛

فبعد أن تناول ابن قنديل وجبة عشائه السريع. ارتمى في فرشـــته كالقتيل. أغمض عينيه بلذة، وراح يغط، في نوم عميق عميق.

أخذ الشـــيخ جاد الكريم يفكر، وهو جالس بجانبه. ويسـتعرض تاريخ (عشـيرته) والحروب التي خاضـتها منذ سكنى الجبل. وكيف أن السلطات العثمانية تبيت لهم، دوماً، نيات الغدر والعداء. وتنتهز كل فرصـــة ســانحة، لاحتلال جبلهم. وإخضـــاعهم للحكم الظالم الجائر، تاريخ طويل. امتد منذ أن رحلوا إليه من جبلهم الغربي - جبل لبنان - إلى هذا الزمن. اسـتعرض مسـرودة هذا التاريخ الحافل، على الرغم من صـوت شـخير ضـيفه الذي كان يدوي في المضافة....

على أيـة حـال. الوقـت الراهن صـــــارم. لا يحتمـل الـهوادة في النوم. أو في محادثة (التاريخ). يجب عليه أن يتحرك، بســـرعة، في مهمته كقائد حربي لرجاله. ليجمع بضع كوكبات فرسان، على الأقل، من القرى...

ماذا يفعل الآن؟ لقد طال نوم ضيفه ابن قنديل. أيقظه؟ ((ها. ها... ولكن في الأمر مؤاخذة أخلاقية)).

تريث قليلاً لعله يستيقظ من تلقاء نفسه.

اللحظات التي تمر دقيقة جداً. و((النائم ميّت)).

أخيراً، عيل صبر الشيخ جاد الكريم، ولو كانت رقبته كرقبة جمل:

- يا بن قنديل.... يا بن قنديل... يا ضيف....

ثم ضغط بيده على رأسه.

- نعم.... نعم... أووف....! لقد أطلت النوم!

- إذا أردتَ البقاء. فأنت تنوب عني (معزباً)... تراني سأنصرف لشأن ما أخبرتنيه.

- لا، يا شيخي. سأغادر توّاً.

- دونك فنجاناً يصحو به رأسك.

رشف ابن قنديل فنجان القهوة المرة بشفتيه الجافتين، وقال:

- قلبي يغلي على نار!

- لِمَ الخوف ؟ فأنتم في امنٍ وأمان، من شـــرّ هذه الحملة.

- أخشـــى أن تضـــيق أراضـــي ازرع، بهذه القوات العظيمة. وتمتد اســـتحكاماتها إلى قريتي (رخم) القريبة منها.

- يعني....؟

- يعني ينهبنا العساكر. ونصبح على الحديدة!

نغض الشيخ جاد الكريم رأسه. بينما تابع الضيف:

- عليكم بالاستعدادات الكافية. فهذه الحملة / كما قيل لنا - لم تســبقها حملة عثمانية من قبل، في عددها، وعتادها، وتجهيزاتها....

- أووف ف! / قاطعه الشـــيخ جاد الكريم. إلاّ أن الضيف أكمل.

- السلطان نوى على إبادة أهل الجبل، وسحقهم عن بكرة أبيهم، هذه المرة يا شيخ!.

ابتسم الشيخ جاد الكريم:

- الحمد لله تعالى، والشكر لصفيه. فقد أُخبرنا قبل الأوان. ثم رفع نظره إلى الأعلى. ورمع أنفه؛ وهو يجمجم: ((صاحب الحمد لا يتخلى عن عبيده المسالمين، الذين لا يعتدون. ولا يريدون من الحرب والقتال إلا ردّ الظلم عنهم)).

- ادعُ لي يا شيخي، حتى أشفع بإيمانك....

- العفو، العفو... صاحب الدعاء حاضر ناظر.... /توقف لحظة، ثم أردف:

- والآن، ليس لدينا ما يقابل شهامتك، يا بن قنديل إلا الشكر.

- بخاطرك.

- مع السلامة. لا تنس ذكر الله، في الطريق.

ولكن، بعد أن ابتعد قليلاً. فكر الش-يخ جاد الكريم: ((هذا الصديق تحمل خطر السفر في الليل، من قريته (رخم)، في حوران، إلى قريتي (السهوة). فهو ما يزال بذمتي، حتى يصل بيته)). صاح به:

- هييه.... يا بن قنديل.... قفْ.

- ما تريد يا....؟

- سيصحبك أحد فرساننا، حتى مسقط رأسك.

- أنا لست امرأة، يا شيخي، اطمئن.

- لا يا.....

- كما جئت أعود / تنهد وأثنى صوتاً آخر:

- المهم أن أسمع ما يرضيني من أخبار، بعد أيام.

وَحَذَرَ يهدج والعشب يخشخش تحت نعليه. وتظله في العالي سحب طافية فوق السفوح، التي تموج ببحر من الخضرة. حقيقة تبقى الطبيعة محايدة في (طبعها)، فقد ترجرج ضوء الفجر، في هذا الصباح، على نحو أخاذ، تلامع على الراوبي والهضاب والبطاح. كأن شب الربيع فيها خضلاً يانعاً، من جديد.

****

الفصل الثالث

شيء ما من التاريخ

حين وصـــل ابن قنديل بيتـه، في قريتـه (رخم)، القريـب-ة من بـل-دة (ازرع). زغردت زوجتـه فـالحـة، ابتهاجاً بعودته، من الجبل الشـرقي، سـالماً. لقد تكبد هذا الرجل مشاقّ السفر، وخطر الطريق الوعرة.طوال عمره العتيّ، لم يكابد مثل هذه السـفرة. لقد بلي الحذاء الجيّد الذي انتعله، وهو يصـدم به الحجارة، في غبشـة الظلام. طبعاً لم يبال بالحيوانات والدواب والطيور التي استبدّ بها الذعر، واستقضّت مضـاجعها الخفية. وهو يترنّم بأغانيه مع نفسه، تزجية للوقت...

- يا أبا سامح طوال ليلي لم أنم / لهثت وراحت تبرز أثار الوشم الأخضر الذي رصعّت به صفحتي خديها علّها تستعيد غوايتها السابقة.ثم تابعت بصوت غنوج:

- فكرت كثيراً في مصيرك بهذه المغامرة التي قمت بها إلى الجبل.

- هذا واجبي، يا أم سامح، تجاه صديقي الشيخ جاد الكريم، وجيراننا أهل الجبل. كرام اللّحى. يستحقون منا التضحية والنصيحة.

-......./ سكتت وانصرفت لشؤون بيتها.

وفي المساء. عندما أخذت السماء تساهر الأرض، تحتها، وترنو إليها بملايين، من عيونها الفضية. أقيمت سهرة عامرة، في مضافة أبي سامح، ابن قنديل، الذي حرص على أن تبنى بعيدة عن زريبة أبقاره وثيرانه الكثر. تجنّباً لروائح مزبلة السماد. الرجل صاحب مزارع وأطيان.

حضر هذه السهرة عدد لا بأس به من رجالات (رخم). لتهنئته بالسلامة. لقد كانت زوجته، قد كشفت، بولولتها في النهار، عن رحلته الليلية التي كانت طي الكتمان.

في هذه الســـهرة لغطت الألســـن أحـاديث كثيرة ومتنوعة. ولكن مختار القرية علوان الجابر صـــفق، بعد هنيهة:

- دعونا نوحد الكلام، يا جماعة.

وبعد أن خمد (الهرج). أثنى المختار على جاره، في الجلوس. فليحان السعيد:

- يا بن السعيد، أنت صاحب قلم سيال، وذاكرة جيدة. حدثنا عن جيرانـنا، أهل الجبل الشـــرقي، وعن عدائهم المستحكم مع ابن عثمان. ثم:

- ((أح... أح...)). / وكانت سـعلة شـديدة الصـوت. انطلق رذاذهـا، كمرشة، على الحاضرين. وبعد لأي:

- أيها الســاهرون...../ وصــمت ابن الســعيد. التفت يمنة ويســـرة. لا بأس. فلتبقَ الأفواه مطبقة مزمزمة في الوجوه. والأنوف تداعب شعور الشـوارب ببخار الزفير. والآذان في مرهف إحسـاسـها. إذن فالإصـغاء جيد وليبدأ الكلام:

- كانت السلطنة العثمانية تعتزم السيطرة التامة على أهل الجبل...... هذا الجبل العالي. الذي يطل علينا من

الشرق، مثل سدّ الصين....../ أخذ نفساً، ثم استأنف يستعرض معلوماته، كبطل جسماني يستعرض عضلاته في حلبة رياضية، أمام النظارة:

- هو - أي الجبل - في الجغرافيا يقع في الجنوب الشرقي من ولاية دمشق. ويتبع لها اسمياً.... / تابع - /:

- كان قد مارس أهله عصياناً على السلطات العثمانية، منذ أن حلوّا فيه. بأوائل القرن الثامن عشر. وباشروا في إحياء سفوحه وهضابه، بغرس الأشجار المثمرة، وزرع الحبوب، بكل أصنافها، حتى غدا جنة. بعد أن كان قفراً بلقعاً..../ جلى حنجرته ثانية:

- ((أح..... أح.....)).

- نعم النُ-زُلُ الجدد نشيطون مجدّون. تشهد لهم سفوح جبلهم الغربي التي غرسوها زيتوناً.... وذلك قبل رحيلهم من لبنان.

مرزَ شاربه الأغبر الكثيف . بل جفّف أنفه بمحرمة بالية فقدت لونها الأص-لي. تابع:

- تمرّدوا على أنظمة الدولة وفرمانات الســلطان، وأوامر الصدر الأعظم، والباب العالي. و.....

ثم:

- لم يرضـخوا. ولم يرضـوا أن يروا على أديم جبلهم جنـدياً عثمـانيـاً واحداً. ولا علمـاً يخفق فوق ذراه، بلونـه الأحمر ذي الهلال المفتوح..../ سكت وهو يختضّ بتأثر.

من الطبيعي أن تدور في النفوس أفكار شـتى. تتعلق، في المقارنة بين أولئك القوم - أهل الجبل - وبين ســكان السـهل - سـهل حوران - المنبسـط ((مثل راحة الكف)). والـذي كـان قد تلقى مهلـه وترابـه، من جبلـه. منـذ غـابر العصــور البركانية. لقد عرف المتحدّث، بفطنته، وحدة ذكـائـه، مـا يـدور في الطوايـا. لـذا علّق على الخواطر المستقرة:

- يجـب ألا نعزوا عصــيانهم وصــدهم هجمـات الحملات العثمانية المتتالية، إلى تضاريس جبلهم الوعرة، وصــخوره البـازلتيـة الصــلبـة. لا، إذ توجـد معـاصٍ تضاريسية أشد

وعورة، وأصعب مراساً ومسالك، بمئة مرة منه، في البلاد والمناطق الرازحة تحت ظلم السيطرة العثمانية...../

نفخ نفساً طويلاً للاستراحة. ثم:

- يكفي شاهداً على صحة ذلك بلاد المغرب العربي، بجبالها المسماة بالأوراس.

فمن يطلع على صخور هذه الجبال وغاباتها وأدغالها، وعمق أوديتها، وأخاديد هضابها ووهادها، يرفعها من خانة الاحتلال العثماني بصورة تامة، ومثلها جبال اليمن السعيد.

يعني هنا (ويمنك) يا بن السعيد هيء - هيء/ وضحك المتكلم:

- لا تقاطعني، يا هواش العلي./ وبعد أن عبس به: ستأنف:

- وجبال عسير شمالي اليمن، كلها معاصٍ. لذا لا غضاضة أن يتساءل المرء في داخله ألف مرة؛ كيف وقع أهالي هذه الجبال تحت الاحتلال العثماني؟

وكيف خضعوا لسيفه السلطاني..../.

نتقَ من جوفه زفرة ألم. و:

- إذن. يعود عصيان أهل الجبل الشرقي - جيراننا - إلى تفرّدٍ في خصائص طباعهم وشجاعتهم، وموروثهم الاجتماعي، و.....:

- وشدّة بأسهم النادرة. كما تخبرونهم. يا ناس. س. س / وأطال حرف السين الأخير....

بعد هذا الكلام نطق (المعزب) ابن قنديل:

- أكمل لنا، يا فليحان السعيد معلوماتك، باطلاعك الواسع هذا. فنحن جماعة شبه أميين. والواحد منا لا يستطيع أن يكتب اسمه إلا بصعوبة.

وأكمل شخص كان جالساً في الركن الشمالي:

- ولا يعرف إلا أن يغمس إصبعه بالدواة، ويبصم.

أجاب شخص آخر بجانب ابن السعيد:

- لا غرو أن نزّود بثقافة ابن السعيد - والتفت نحوه - ، فوالده رحمه الله، أنفق عليه وعلّمه في مدارس الاستانة.

قاطعه فليحان السعيد نفسه، بعد أن مسكه من كمه:

- دعني ارجع، يا كايد، إلى الموضــوع الرئيس الذي بدأت به، أي يجب أن نعرف أن العامل البشــري، بنوعه الممتاز، هو العنصــر الأســاس، في عصــيان أهل الجبل. ويظل العامل الطبيعي مساعداً..../ واستأنف:

- نعم، ويا للحياة التي يعيشــون! فهم يشــربون دبس العنــب، وســـمن الغنم، ويــأكلون خبز القمح لا خبز (الخشــكار). فلا مرض عندهم. ومتوســط العمر ينوف على السبعين.

ابتسم المختار علوان الجابر هازئاً, وقال:

- زدتها حبتين يا بن الس-عيد, فأنت مت-حيّز, بالك-لية, إلى أولئ-ك ((الجماع-ة)).

نطق ابن قنديل, من جهته، على الفور, وبلهجة حادّة:

- أنا مع هذا التحيّز. واختض بكامل جســمه. ثم هدأ قليلاً وتابع بنبرة خفيف-ة:

لا أدري يا إخوان, لِمَ أحببتُ هؤلاء القوم؟

((الكريم والشــجاع يحبّ))... /صــوت صــدر من الجانب الغربي.

- صـــدقت, يا بخيت العواد.... / بينما عاد صـــوت المختار يرتفع:

- دعونا من كلام المجاملات. ومن ينفي أثر السـفوح والهضــــاب التي خددتها الســـيول, وأحالتها مصــــاطب ومطبـات في إعـاقـة ســـير الحملات العســـكريـة وقطع الاتصالات. و..

نبر ابن قنديل بانفعال:

- على كل حال, ســـتبقى قمم الاندفاعات البركانية الشاهقة, في شرقنا موازية لقمم نفوس سكانها الساميـة في الشموخ والاعتزاز.

ووكّد ذلك صوت صدر عن الركن الشرقي:

- هم معروفون في تـاريخهم الطويـل, بـأنهم يـأبون الذل والخنوع.

ثم انفرد صوت آخر, ذو لهجة حارّة:

- الشـــهادة لله تعـالى. أهـل الجبـل قوم أبـاة أحرار, مســـلســـلون من قبائل عربية صـــرفة. تعود بأصـــولها العريقة, إلى قبائل (لخم) و(تنوخ)....

عاد وانبرى للكلام فليحان السعيد:

- هذه القبائل - على ذمة ما يقوله التاريخ - هاجرت من اليمن السعيد. بعد انهيار سدّ مأرب. الذي يسميه القرآن الكريم بالعرم. هاجرت إلى العراق. وأسست فيه مملكة عربية ناهضة. ازدهرت بعاصمتها الجديدة مدينة الحيرة...

شهق وتابع في سرد معلوماته:

- وفي عهد الفتوحات الإسلامية, شاركوا فيها.ثم نزحوا إلى الثغور الشمالية لحماية الدولة العربية, من هجمات الروم البيزنطيين....

فرح ابن قنديل, من أعماق قلبه, لهذا الكلام:

- لا فضّ فوك, يا بن السعيد.

اعترض صوت, من الركن الجنوبي:

- دعه يكمل, يا معزب.

تلمظ فليحان السعيد. كأنه يسنّ شفتيه بمشحذ للكلام:

- ثم دعت الظروف الأمنية للدولة العربية, في العصر العباسي, إلى أن يطلب منهم الخليفة أبو جعفر المنصور,

الانتقال من الشمال إلى الثغور البحرية, في سواحل لبنان.لحماية الحدود الغربية, من غزوات المردة الأجانب......

-... نعم... نعم أكمل يا بن السعيد.

- سأكمل يا معزب. لا تقاطعني:

- وبعد استقرارهم في جبل لبنان وسواحله, تخاصموا, بين قيسيين ويمنيين. وارتحلت عائلات عديدة منهم, إلى الجبل الشرقي. واستقّرت فيه. حتى أصبح يعرف باسمهم...

استأنف:

- أي نعم. أخذت الهجرات تتوالى فرادى وجماعات. حتى امتلأت بهم الخرب والسفوح... أي! وأيمُ الله. لقد عانى أهل الجبل في سكناهم هذه, بجبلهم الضافي خضرة برياضة وغياضه، وهضابة المعطرة بشذا الزهور، وعبق براعم الأشجار المتفتحة. الضافي بكل ذلك وأكثر، على البادية المحيطة به جنوباً وشرقاً وشمالاً.

كأنه قطعة مســـروقة من الجنة. لقد عانوا كثيراً من اعتداءات البدو عليهم. وعلى أملاكهم وحيواناتهم... و...

نطق صوت نشاز من الركن الشمالي:

- لأن البـدو حرموا من ارتيـاد مرابعهم ومراعيهم، في هذا الجبل الخصــيب ؛ فكان، قبلاً مرتعاً لمواشــيهم. ومنتجعـاً لأنعـامهم، من أجـل الكلأ والمـاء، يســـرحون ويمرحون، في أرجائه، كما يحلوا لهم.... / أخذ نفســاً واستأنف:

- هكذا أنقل عن لسان جدي فهيد.

نطق صوت آخر:

- لقد حلت بالبدو ضـــربة قاضـــية ب-.... / قاطع الصوت ابن قنديل، في الحال:

- كان البدو، في حياتهم المعيشــية، رحّلاً، ضــاربين في أعماق الصحراء. لا يستقرون في مكان معين. والي-وم يتع-امل-ون مع أه-ل الجبـل بمقـايضـــة (القلاط) - ضريبة بدل الرعي - وبتربية المواشي.

ثم استرد فليحان السعيد الكلام:

- على كل حال كان العدو الألد، لأهل الجبل السـلطة العثمانية، التي ظلت تحاول مدّ خطمها لاحتلال الجبل..../ قاطعة المعزب المتحمس:

- ولهذا الســبب جرّد الســلاطين، وولاتهم، عليهم الحملات العسكرية المتتالية المجهزة بالمعدات الضاربة. وكلها باءت بالفشل - والحمد لله تعالى - كما تعلمون.... / أخذ نفســاً قوياً بأنفه وفمه معاً. ثم ابترد بشــربة ماء من الطاس النحاسي، بجانبه، ومسد شاربه ليجفّفه.

سمع من الجميع:

- ((صحتين)).

- ((على قلوبكم)). / رد على الصــوت الجماعي، وتابع:

- نعم لأكمل...

- تفضل أكمل يا....

- ظل أ هل الجبل صــامدين في طودهم الشــامخ الأشم.... ه-..... ه-.... م.... م.... - همهم و:

ظل هذا الطود عالياً بقممه. نائفاً بقلله....

هنا اعتدل المختار علوان الجابر، بجلسته (التربيعة). وكأن خدر فخذه، نطق:

- الحق يقال. نذكر لهؤلاء الأشاوس جيراننا انتصاراتهم الباهرة. بل العجيبة على جيوش إبراهيم باشا. وهي ليست ببعيدة عنا في الزمان والمكان...

ألاح برأسه, عدّل أطراف كوفيته, على كتفيه, وتابع:

- يجب ألا ننسى كيف لملم إبراهيم باشا فلول جيوشه المسحوقة المذعورة. ويمّم شطر مصر منكسر الخاطر, معفّر الجبين.

نطق بخيت العواد:

- وهاهي ذي لحيتي الشيباء, إذا ما حلّ المصير نفسه, بالحملة المتمركزة, الآن, في ازرع.

- و..

وأخيراً:

((لقد طالت السهرة, يا جماعة)).

صوت مجهول:

- لا تغادروا قبل النقل...

أدار ابن قنديل رأسه باتجاه الباب:

- يا مرأة.. يا فالحة...يا أم سامح.

- ماذا....؟

- إئتنا بشيء من التين اليابس والزبيب.

****

الفصل الرابع

حملة والي دمشق

في الحقيقة. بعد أن تفاقم أمر السـلطات العثمانية, بالانكسـارات العسـكرية المتتابعة.والإقرار بالعجز عن احتـلال الجبـل, وإخضـاع أهـله (للطاعة السلطانية). والاهم من كل ذلك.تطبيق الخدمة الإجبارية على الشـبان الجبليين الأقويـاء, ذوي الزنود المفتولـة, الـذين سـيسـتخدمون شـجاعتهم, في حروب السـلطنة, ببلاد (الروملي والبلقان).

ركب الشـيطان رأس السـلطان العثماني. وجرّب حظه في آخر حملة, بقيادة (الأميرالاي ساري عسكر). إذ جهّز له حملة فريدة من نوعها في المعدات والعدد بلغ إحصاء كتائبها أكثر من (١٢٠٠٠) جندي. وذلك في عام /١٨٥٢م.

فشدّ (ساري عسكر) إبزيم حزام نطاقه المذهب,كقائد باشا لحملة عسكرية مميّزة. ووضع أوسمته و (نياشينه) على صــــدره, ضـــيّق عينيه الخرزيتين, وهو ينظر إلى هيئته في المرآة قبالته. ثم فتل شاربه الطويل, وابتسم. من المؤكد أن نتفاً من الذاكرة العسكرية لديه. قد احتشدت في نفســـه بعنفٍ, وأخرجت تخييلاً باهراً لانتصـــار طاغوتي قادم...

سارهذا (الساري) بحملته العتيدة, نحو الجبل. والتي عادت وانتهت, كالعادة, بالســـحق والمحق. على ايدي (أهل الجبل).بالسحق والمحق في معركة شــهيرة عرفت بموقعة (ســاري عســكر), في قرية (امســيكي), شــرقي حوران.

وظلت لدى الســـلطان تتأرّث هذه المعركة, كمعركة مرعبة. يشعر بالصدمة كلما جالت في خاطره.

وقد أنشــد في هذه المعركة القائد الحربي لأهل الجبل - آنذاك - الشــيخ المبجّل جاد الكريم.وكان شـــاعراً مجلياً مجيداً. إضافة إلى خبرته القتالية في الحروب.

أنشد قصيدة مطولة. ومما جاء فيها:

أخذنا المدافع, وأدبر الجيش مكســـور

ولّــى عـلــى الأعـق--اب والأدبـار

هـد, ورحـل, من أول الليـل (س-اري)

من دون م-ا يطـل-ع علي-ه نــه-ار

أيضـــاً. بعد الفشـــل العســكري للســلطات العثمانية, أصابها فشل آخر في سياستها البغيضة, تجاه أهل الجبل. وذلك بتـأليب النفوس, وتحريض العداوات العصـــبيـة, والنعرات المذهبية بينهم, وبين جيرانهم.

وتم هذا الفشـل الأخير, بفضـل تقدم الوعي القومي - إذا صح هذا التعبير- واحترام حقوق (المجاورة):

- يا (حوارنة). ثمة أكثر من وصية تجاه الجار. فعلينا بحفظ حرمــة مجـاورتنـا لأهـل الجبـل. ولا نرد على (تهويشات) الباب العالي ولا (فذلكات) والي دمشق...

وجلجلت صيحات في المحادثة. بمضـافة ابن المفلح, شيخ بلدة البصيرة. وكادت تحدث دوامة فوضى.

- كل ما نطقت به هو الصح, يا بن المفلح.

ردعليه قاسم الربضي وتابع:

- وقد ذكرت وصـــايا الجار في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة, وهي معروفة لدى الجميع.

- إذن علينا - أخذ الكلام ابن المفلح - أن نسفّه رسالة الصـدر الأعظم في اس-طنبول, التي تتضـمن تحريض (أه-ل ح-وران الأبرار) على أهل الجبل (الكفرة الأشرار) - على حد تعبير الرسالة.

نَدَّ صوت جهوري, من صدر المضافة:

- يجب ألا ننسى مثلنا لشعبي: ((جارك القريب, ولا أخوك البعيد))...

تابع الصـوت: فجيراننا أهل الجبل, هم إخواننا الأقربون, يشاركوننا في الهم العام,وفي اللغة, و..

- صدقت, يا فارس الحمود.

أجاب المعزب ابن المفلح.

وتابع:

- إذن كلنا نوافق ابن قنديل, وأهل قريته (رخم), في تحـذير أهـل الجبـل, من الخطر المحـدق بهم. والـذي سـيدهمهم, عما قريب, بهذه الحملة الظالمة المعسـكرة في نواحي إزرع.

****

أجل؛

بعد هذا الموقف المشـــرف,من أهل حوران, إزاء جيرانهم أهل الجبل. وبعد الهزيمـة النكراء, التي حلّت بحملة (ساري عسكر).

لم يســع الوالي العثماني بدمشــق (محمد باشــا القبرصـــي), إلا أن يجرب حظـه, هو نفســه, مع أهل الجبل.ويثأر لكل الهزائم, التي حاقت بالحملات العسكرية السابقة. فجرّد, هذه المرة, حملة جرارة كرارة, مؤلفة من عدة فيالق, مجهزة بالمدافع الثقيلة (الطوبات) والأســلحة الخفيفة النـاريـة, مثـل الطبنجـات, والغدارات, وبواريد الرصـــاص. إضـــافة إلى ما يتبعها من قوافل البغال التي تنقل العربات والمعدات والمؤن,واللوازم الأخرى.

أي إن هذه الحملة أعدت إعداداً عسـكرياً جيداً وكافياً بما يوافق خوض معركة حاسمة, ستكون الفاصلة الأبدية, لعصيان أولئك المتمردين في جبلهم. و...

- هيا يا بكباشـــي (أوغلين), تفقد الأفواج والكتائب. وقف على مدى جاهزيتها.

- أمر مولاي الباشا.

أحنى الباشا رأسه (المطربش) لرد تحية مرؤوسه.ثم فطن بأمر هام :

- احرصـوا, يا اوغلين, على نظافة الجنود من القمل وسائر الطفيليات حتى لا يصيبهم مرض التيفوس....ثلاثة أيام متواصلة في المعسكر ليست بالقليلة.

هز رأسه وزفر نفساً، ثم:

- لقـد زدنـا لكم لوازم الاغتســـال والنظـافـة من الصابون....

توقف قليلاً والتفت إلى ناحية أخرى:

- وأنت, يا يوزباشي (إكمان). هل استطلعت الأماكن التي ستمر بها قطعاتنا العسكرية؟

- سيدي الباشا,معالي القائد العام. في المساء سيرجع إلينا أفراد سـرية الاسـتطلاع. وسـتكون معلوماتهم, بين أيدي القائد في الحال.

عاد الباشا,وهز طربوش رأسه. فتناثرت (شراشيب) الطرّة على المخمل الأحمر.نطق بوقار. وقد طغت عليه نشوة الجبروت والسلطة:

- قررت أين سـيكون مركز تجمع الطوابير, يـا بكباشي أوغلين....

أدى أوغلين تحية وقال:

- مولاي المعظم, مستشـارو الدراسـات الطبوغرافية العسـكرية, لا يفضـلون منطقة ازرع, بحوران للتمركز, لأنها منبسطة و تكشف بسهولة.

- أنا اخترتها, وبكباشـي مثلك, يا أوغلين, لا يعارض باشا, برتبة ماريشال!

قلص عضلات وجهه اللحيم, ونبر بصرامة:

- أفضـلها, لأنها قريبة من حدود الجبل الغربية.ومنها يبدأ الانطلاق شرقاً؛ للمباشرة في المعركة الظافرة...

ثم أفرج بين شــفتيه مبتســماً لمســاعده, وقد تعبأته, مســبقاً,لهجة النصــر. ونغمة ربح المعركة, على العصــاة المعتصــمين بمعقلهم الحصــين, منذ مئات الســنين. بل راحت مخايل هذا النصــر المزعوم, تتواثب في تلافيف دماغه أحلام زهو, وخيلاء فخارٍ. ترسم له صــوراً رائعة من أرض المعركة, وقد امتلأت بأشلاء القتلى.

غضــن جبهته. وأثبت,بين عينيه,عقدة صــعبة. بوحي من قلبه القاســي, الذي قُدَّ من صــخر: ((ليكن القصــف والبطش, دون هوادة, دون شــفقة... على يدي ســيتمّ قطع دابر هذه الش-وكة الشــائكة, في جس-د الســلطنة, وق-د طال أمدها...)).

مصــمص شــفتيه, وهو يحادث نفســه؛ ((.... ياه..! ســيمتلئ صــدري بالأوســمة والنياشــين.... يجوز يقلّدني إحداها الصدر الأعظم. أو السلطان نفسه))!

ولا يدري, كيف قهقه وحده بصــوت عالٍ: ((هِئ... هِئ...))!

الأمر الذي استرعى انتباه البكباشـي (أوغلين): ((... هل أصاب الوالي مسّ من جن-ون النصر والعظـمة, قبل ابت-داء المعرك-ة)) ؟ ثم س-مع ه--ذا (الأوغلين) إيعازاً ناريّاً:

- ترقب يا بكباشي, أنباء الاستطلاع.

و:

- خبباً بطيئاً, إلى الأمام.

وبدأ المسير, وانداح سيل عرم, من الخيل والفرسان, وبغال العربات, في أراضٍ شاسعة واسعة.

****

في مركز الاجتماع, تحت أشعة شمس, غدت مخملية ناعمة,كشـمس الربي-ع. بل في الخيمة الكبيرة - خيمة القيادة - كانت ثمة جلسة حافلة بالاستشارات, واستئناس الآراء, والمزايدة أيضاً:

- يا صـاحب السـعادة, حملتنا المدجّجة بالأسـلحة الضاربة. ستخضّد شوكة الأعداء. وعما قريب سنحتل جبلهم.وندوس هضابه وقممه, بمداسات عسكرنا... طالما أنت على رأس قيادة الحملة, أيها الموقّر.

أفرد الوالي, محمد باشــا القبرصــي,وجهه قليلاً.وظل صامتاً.قبل هنيهة كان هاشّاً باشاً. ما الذي أصابه يا ترى؟ أهي وســاوس خبيثة؛ اعترته, وأخذت تســاوره بشـؤم؟؟. ((أخزى الله الشــيطان الرجيم)). ثم أطرق. وضـــع يده اليمنى على قفصه الصدري, من الجهة اليسرى. نبضات قلبه, بتسارع زائد.

((القلب دليل صاحبه))!

- ((بِمَ تنبّئني, يا قلبي,بدقاتك هذه))؟ شـــحب وجهه. وعاد ليغور في أعماق صمته.

ولكن هذا الموقف اليائس, منه, لا يجوز الآن.شـــجّع نفســـه. يجب ألا تظهر عليه علامات ((الداخل)). رفع عنقه ذا الطيات المخصّـفة. تلامعت صـفحة وجهه بالنور الأحمر, الـذي انعكس عليـه من الطربوش المجلّـل بـه رأسه. ثم نطق بحزم. كمن يطرد عنه أوهاماً غشته فجأة:

- يجب أن نخوض المعركة, بقوّة. ونسـتعمل أقصـى درجات العنف في القتال, ولا ننسَ أن نتعامل ((معهم)),

بما يعرف بحرب الأرض المحروق-ة. ندمّر قراهم, ونتلف مزروعاتهم, وأشـــجارهم, و... ونبيدهم عن بكرة أبيهم.

واشتدت مرّة لهجته أكثر. كأنه يسدّ نقصاً اعتراه:

- يجب أن تكون حرباً, لا تبقي, ولا تذر.و...

وحلّل فيما رغا به من كلام قتل الأطفال والنســـاء والشيوخ... وفي أثن-اء ما تفوه به. أجابه يوزباشي حديث العهد برتبته:

- سـيدي الوالي.سـتكون حرباً قاصـمة, فاصـلة ؛ كما تريدون....

قاطعه الوالي:

- سـيتم هذا بفضـل همّة أمثالك, من الضـباط النجباء, يا يوزباشي (كوران). وبالمناسبة أهنئك بترقيتك الجديدة, التي نلتهـا تقـديراً لمـا قـدمتـه للســـلطنـة, في معـارك (الأرضروم).

ابتسـم اليوزباشــي كوران. وطفح وجهه بالبشـر والفرح. حين حاز شـرف إجابة الوالي نفسـه. والاهتمام به. التفت إلى كتفيه المرصّعتين بالنجوم المذهبة, وصاح دون وعي:

- أنا فداؤكم معالي الباشا.

- عشت, يا كوران.

عاد الوالي, ورفع الكلفة, مع هذا الضـــابط. وكلّمه باسمه, تحبّباً. ولكن ثمة صوتاً خفيضاً نبس:

- أ... أ.... أ.

- أفصح كلامك يا بكباشي شازار. بل أنت يا بكباشي طغرل.

- ســـعادة الباشـــا, القائد العام.... دعونا نتخذ....كل الاحتياطات...

قاطعه الباشا. بصوت مرتفع:

- من قـال لـك إننـا لم نتخـذ الاحتيـاطـات اللازمـة... هاه؟!

- عفواً سيدي الباشـا... قصـدت أن... هذه الحـرب مع أهل... الجبل....

- أي... ما بها؟

- يعني. يجب أن تكون هي الحرب الأخيرة معهم.

اتجه الوالي بوجهٍ جهمٍ, ناحية الضابط المتكلم الآخر:

- ماذا تعني, يا بكباشي شازار.

- أعني, سيدي الباشا, أن نشجّع جنودنا ونحمّسهم, على القتال, بوساطة (العطفة)..

أطرق قليلاً يطرف أمامه, ثم تابع:

- ولنعلم أن هرب جنود السلطنة العلية في المعارك مع أهل الجبل له تاريخ طويل.

أمعن الباشا يفكر,ثم نطق:

- الفكرة مقبولة, لا بأس في استخدام (العطفة) في المعركة.

وراحت الأذهان في الحال تستعيد ما خزنته الذاكرة فيها.من تاريخ هذه التجربة في الحرب.وما لها من أثر في تأجيج النفوس حماسة وشجاعة لدى الجنود.

إذن فليكن هذا التقليد القتالي - (العطفة) - المأخوذ من عادات العرب أنفسهم.

- أنا أوافق على تجربة العطفة.إنه لاقت-راح وجيه - نطق البكباش-ي (أوغلين) - وتابع:

- فالعطفة كانت تلهب وقيد نار المعارك أكثر.وتعيد

الهزيمة نصـراً والانكسـار ظفراً, في حروب العرب الغ-اب-رة, ويس-مونها أحي-ان-اً ب- (العماري-ة).

- نعم... نعم... أنا حدثت, في هذه البلاد بالذات عن هذه (العطفة) سعادة الوالي.

كان اليوزباشي (إكمان) هو الذي أخذ الكلام، وتابع:

- وعن دورها المؤثر في ربح المعارك.

- هات, يا يوزباشي إكمان أمثلة...

نبر الوالي وكأنه يلقي إيعازاً.

- مثلاً نرى فعل العطفة في حروب قبائل بني هلال العربية,مع خصومهم.

فقال لي شيخ هرمٌ, من شيوخ بادية الشام, إن سلطان بني هلال حسـن العامري.... / وتوقف إكمان. كاد ينسـى ما سيقوله.ثم أنقذ لحسن حظه:

- كان هذا السـلطان قد نصـب أخته الجازية أم محمد عطفة, لمرافقة فرسان قبيلته في المعارك التي يخوضون.

تنهّد اليوزباشي كوران, ونطق:

- أنا مع تزويد فيالقنا بـ (العطفة). حتماً سيتفانى الجنود في القتال وهم يستمعون إلى صوت هذه الفتاة الجميلة,وهي تهزج لهم, وتزغرد وتبثّهم (هيهياتها), من خدر هودجها.

أكّد البكباشي أوغلين, من جهته:

- وهنا سيستعر الجنود حماسة وشجاعة. وستحلّ الانكسارات المتتالية بمقاتلي العدو. ويندحرون شرائد هاربة لا يلوون على شيء.

ابتسم الوالي محمد باشا القبرصي. وختم هذه الجلسة الاستشارية بقرار حاسم:

- إذن. يجب أن تصاحب (العطفة) قواتنا في المعركة.

وبعد هذا القرار. نسي الوالي هواجسه السابقة كليةً. ولعبت في ذهنه - كما تلعب الخمرة - مخايل البذلة العسكرية الخاصة.ذات الياقة المذهّبة, وشرائط الترقية, على الصدر والأكمام. وهاتي يا خيلاء النصر ما عندك من أحلام.

****



الفصل الخامس

معطى السهل

علمنا أن الأرض اســـتقرت، في الغرب، من الجبل الشرقي، بسهلٍ فسيح ممراعٍ. سمّاه التاريخ، منذ غابر الأزمان، بسهل حوران.

كانت قد انهالت عليه ســـيول المهل البركاني، حين اشـــتعلت القمم في الشـــرق منه، بنيران باطن الأرض. واندلقت صـــهارة الصـــخور على المنخفضـــات القريبة المتجهة صـــوب البحر. ثم تلبثت هذه الســـيول الدافقة، وجفت.

وهكذا منح هذا الســـهل الحوراني، تربة خصـــيبة مصـــبوغة بالأحمر. فصـــارت كأنها تشـــكلت من رماد بازلتي بحتٍ. اندحت على أديم بساط هذا السهل الوهاج. المنبسط كراحة اليد بغضاره اللدن. فبنيت القرى. ثم

المدن. ودغدغتها نســـائم الأنواء المعتدلة، ولطائف الربيع العســـجدية. وبذل ســـاكن هذا الســـهل الحوراني جهوداً حثيثة، في اســـتنباط خيرات تربته المعطاء. حتى سمي في العهد الروماني ب- (أهراء روما للقمح).

كل هذه العوامل الفعّالة. جعلت الحياة، في ((ســـهل حوران)) مستدامة باليسر والرفاهية. إضافة إلى ميزات جمة في إضــفاء الاســتقرار، والعيش الرغيد، على حياة الإنســـان؛ مثل المناخ اللطيف بالحرارة والبرودة. ومثل تناوب الفصول الأربعة بانتظام.

الأمر الذي انعكس على الناس صـــفاء ورضـــاء ورخاء. إذن فمن الطبيعي أن السعادة والبهجة والدعة في العيش. تترك أثرها في الإنسان، ولا سيما لدى المرأة.

فلا نستغرب فيما اتصفت به المرأة في سهل حوران، من الحســن والجمال، منذ القديم. بفضــل ما نعمت به من دلال ورغادة، وفيء وظلال. وتظافرت كل هذه العوامل، على لدونتها، ونعومة بشــرتها، وإشــراق وجهها، ولطافة قسماتها، ورشاقة سماتها. فلا غرابة أن طار صيت الفتاة الحورانية، بالبهاء والافتتان. مما دعا طلاب الزواج أن

يستعطفوا ذوي أولئك الفتيات الفاتنات، في الحصول على ضالتهم، من خدور بناتهم.

إذن. لا غرو أن تكون (عطفة) حملة والي دمشـــق محمد باشـــا القبرصـــي على أهل الجبل. أن تكون إحدى حســـناوات حوران. واعتمادها في هذه المهمة لتشـــجيع جنوده بالمعركة القادمة.

فمن هي غادة حوران المرشـــحة كـ (عطفة)، يا ترى ؟؟

****

الفصل السادس

العطفة

كانت الأوسمة والميداليات بادية متوهجة على صدره حين ألقى:

- يا بكباشـــي أوغلين، فتشــوا عن فاتنة من بنات حوران، لتكون عطفة غيداء لحملتنا.

- أمركم مطاع سيدي الباشا.

إيعاز سام رفيع صدر عن الوالي - قائد الحملة - إلى مســاعده فيها. وكان جواب هذا الأخير بســرعة البرق. وبحركات نارية انبثت في كل مكان، بســهل حوران. جرت الاتصـــالات. وعمت مختلف الأوســاط ومخاتير القرى، بخاصة. ومنها:

- يا بن زغيب، من ترشح من صبايا ازرع الجميلات لتكون (العطفة) ؟.

- سيدي البكباشي. فتّشوا بأنفسكم....

- أنت معادٍ لنا. أنت مع ((الكفار)).... زفر بوجهه وتابع:

- أنذرك بهدم بيتك، وسلب أثاثك ومواشيك، ومؤونتك، و......

- ((دخيلك، دخيلك، يا سعادة البكباشي))...

- إذن. افصح عن رسم حسناء تصلح ل-.... / قاطعة ابن زغيب:

- امهلني بعض الوقت...

- هيا إلى مقابلة معالي الوالي.

وفي الخيمة الكبيرة تلعثم لسان مختار ازرع ببضع كلمات:

- يا عطوفة.... الباشا..... في ازرع.... لا..... يوجد....

- اخرس، يا كلب.

حرّك الباشـــا كرتي عينيه، في محجريهما، وحملق بشدة:

- إن لم تعلمني عن فتاة جميلة. فســأودعك الســجن، طبعاً، بعد هدم من-زلك و.....

- يا سعادة الوا...../ رفع الوالي كفه اليمنى بوجه ابن زغيب وأسكته. ثم شـهق نفسـهاً عميقاً، انتفخ به صـدره. وزفره على مهل كمن ينفث دخان نرجيلة واستأنف:

- أوه....! أنا اعرف أن سهل حوران مملوء بالصبايا الفاتنات اللواتي يسبين العقول...../ نفخ عليه زفيراً آخر/: وأنت، يالعين تخفي أســـماءهن عني.... أنت معزول عن (المخترة) ومسجون في زريبة الحيوانات.../ لَهَبَ وتابع:

- أف ف ف.... خذه يا اردوناز، وقيّد بديه ورجليه بجن-زير الحديد.

ثم شخص آخر، أتى به الأونباشي (طوران).

- ماذا....؟

- أنا ابن المختار إلى المسجون.

- هاتِ ما عندك..... قلْ.

- تخرجون والدي، من سجن الزريبة.

- نخرجه.

- يقـال إن في قريـة (نوى) غربي ازرع، فتـاة لا (أحلى) ولا أجمل!.

- ابنة من هي؟

- ابنة ابن المذيب. وقد طار صيتها في ال-.....

- لم يذكرها أحد إلاّ أنت..../ ثم تنّهد الوالي بعصـــبية واستدرك:

- كن، أيها الشـاب دليل المفرزة العسـكرية، إلى بيت ابن المذيب في قريته.

ثم التفت إلى ناحية اليوزباشي (إكمان):

- سر على رأس (فصيلة) مسلحة إلى قرية نوى.

****

على تلعة، في وسط قرية نوى. بني بيت كبير. تؤدي إليه بضع نواصٍ، من مفارق عدة. مما يسهل تطوقه.

في ذات صـــباح فوجئ صـــاحب هذا البيت بقوة عسكرية. تتخذ استحكامها حوله وتحاصره.

- ماذا فاعل معكم من مخالفة، أيها الضـــابط ؟ / ثم حياه بانحناءةٍ من رأسه كسلوك مهذب منه.

-..........

- رد عليّ.... أنا من رعاياكم. وادفع ضرائب الرقابية (الدربية) والمال والعشار، و.../ ومضى في تعداده.

- مهمتنا غير ذلك، يا بن المذيب.

- طيب. تفضل إلى المضافة.

بعد الجلوس أفضى الضابط بطلبه:

- نريـد منـك ابنتـك (فرحـة)، لتكون (العطفـة) في حملتنا على أهل الجبل..../ زفر الضـــابط هواء صـــدره، وتابع:

- عطوفة الباشا - والي دمشق - يقربك سلامه ويبثك تحياته، ويعدك بـ..../ قاطعه ابن المذيب:

- يا معالي الـ......

- اليوزباشي إكمان.

- يا معالي اليوزباشي إكمان. أ...أ....

ثم ســكت ابن المذيب. وتفصّــد عرق غزير على جبهتـه, ووجنتيـه.حـدق إليـه اليوزبـاشـي إكمـان بعينين ناريتين، مما أرعبه أكثر.

- يا.... يا.......

- دون (يا). ودون (لا)، ومشـاكل أخرى..../ نفخ الضابط:

- القرار اتخذ من عطوفة الوالي، وحسب.

-..... /صمت ابن المذيب صمت الأموات. لم يستطع إخفاء وجهه الذي انشـحب واصـفرّ.كمن خرج من القبر تواً. تابع اليوزباشي كلامه:

- هـذه مهمتي إليـك. ولا أريـد أن أعلمـك عواقـب الرفض.

-.......

- أين هي فرحة ؟

- عند أمها.

- آتني بها لأراها. وستكون، عندنا، في غاية الصون والأمان. ترافق الحملة في المعركة. وتعود سـالمة - بعد النصر - إلى حُجر أمها.

- يا سعادة اليوزباشي، ابنتي مخطوبة. ولا (موانة) لي عليها شرعاً./

ثم بلع ابن المذيب ريقه. لقد ضـاق بلعومه، في حلقه الذي جفّ، وصار يتنفس بصعوبة .

- جئني بخطيبها، لنعاهده..... هيا (الوقت) لا يسـمح بالتمهل والانتظار.

****

في الحقيقة. لم يكن اختيار ابنة المذيب، محض مصادفة. بل، هذه الفتاة كان قد طار صيتها في الحسن والجمال - كمال قال ابن مختار ازرع، لوالي دمشق. وصار اسمها على كل شفة ولسان. وضرب بها المثل: ((فلانة لا تساوي قيراطاً من جمال فرحة المذيب)).

- ((لِمَ رفضت (خزعة الدوس) خطيبها؟ أهي أكثر فتنة من ابنة المذيب))؟

- و((.......)) إلخ.

على كل حال. لم يســـتطع ابن المذيب، إلا أن يلبي طل-ب اليوزباش-ي (إكمان). و((إلاّ....)).

عندما عبرت باب المضـــافة زوجته فاطمة العليان، بصحبة ابنتها فرحة. كأن شعت المضـافة ضـياء، من ن-ور وجه هذه الفت-اة. وبعفوي-ة صـــف-ر (إكمان) بين شفتيه: ((أو وفتْ تْ تْ)).

ثم صدرت عنه كلمة: ((أوا ه-....!)).....

ولكن عاد وتماسـك. بل تمالك نفســه أكثر ورجع إلى اتزانه، كضـابط كبير من ضـباط حملة والي دمشق محمد باشا القبرصي.

جلســـت الأم، وظلت ابنتها تزخ المكان بهاء، وهي واقفة بجانبها - كان رأســـها مشـــمولاً بطرحة مخرمة منمنمة بخرز البراق. مما زاد في رونق وجهها سطوعاً. وعلى قامتها الميادة الممشـــوقة انســـدل ثوب من نوع (شـــرش). بني اللون. نســـج من قماش غالي الثمن عالي الجودة.

بَانَتْ الأصـــابع اللدنة. واليدان الفضـــيتان من كميه حتى المعصمين.

وأما القدمان العاجيتان، فقد اندستا في صندل جلدي، حتى الكاحلين الساحرين.

- ((ياللكنوز التي تخبئها هذه المخلوقة، في داخل ثوبها))! / تلمّظ اليوزباشـــي إكمان. كمن يســتعد لالتهام أكلة شهية.

تابع في تداعياته الداخلية: ((.... إنها تعج أنوثة وإغراء.... ليتني أحظى بها، وأخطبها زوجة رابعة لي...)).

- تفضلي اجلسي يا ذات..... يا عطفة حملة سلطان بني عثمان.

أسدلت فرحة أهدابها الوطف، وهزت رأسها، وكأن بروقاً تلامعت من صـــوبها. من المؤكّد أنها كانت ذاهلة. لا تدري (ما الخبر)؟ ثم دخل، بعد قليل، شـــاب وســـيم الهيئة، فارع القامة. تغطي رأسه كوفية بيضاء. ويرصّع شفته العليا شارب أسود رفيع. وكسيت لهاذمه شعراً خفيفاً، بقل في وجهه حديثاً. الفتى يتجاوز العشرين بقليل.

انشــــقّت ابتســــامة كالفجر، من فم فرحة. نابت عن دعوتها له، إلى جانبها.

كان الشــــاب عمار الأحمد شــــديد الارتباك، في هذه الأثناء لم يحضــــر طوال هذه المرحلة من عمره مثل هذا الاجتماع المهيب الصــــعب. ((ما الذي جرى في هذا الكون؟ بل في حوران بالذات))؟.

- ((لِمَ هذا العســـكر؟ ولِمَ حضــــور خطيبتي وامرأة عمي معهم، في المضافـ-ة))؟

ولكن صوتاً جهورياً قطع تفكيره:

- أيها الشــــاب الشــــهم النبيل.كن مطمئناً إلى ســــلامة خطيبتك عندنا...... / وتوقف الضــــابط (إكمان)، كجس نبض أولي. بينما ازدحم الدم في عروق عمار، وازداد حجم عينيه. فَغَرَ فاهه قليلاً. وتغير شــــكل وجهه ولونه بالبتة . لم يعد يشــــبه ذاك الشــــاب الجميل، الذي كانه قبل قليل. ومن أجله اختارته ابنة المذيب خطيباً لها، وفضــلته على كل شبان قريتها نـ-وى.

تابع الضابط:

- هي ستكون في مهمتها معنا، بصون...../ وسكت.

عاد وفكر عمار الأحمد في نفسه: ((ما هذه المهمة التي تنتظر خطيبته، مع هذا الضابط العثماني؟... هل صارت النساء في حوران، تساق للخدمة الإجبارية في ((جر نظام)) الجيش؟ أف...، يا للظلم العاتي...))؟ ثم زفر. مازال صامتاً، مع صمت المضافة. عاد وفكر ليجيب عن سؤاله الداخلي:

((لم يسبق أن سيقت المرأة إلى (القرعة). ولم أسمع بذلك)).

و: ((..... أنا مطلوب للخدمة، وسوف أنوب عنها.....))/ ثم سمع:

- انتبه جيداً، أيها الشاب، لما قلته لك. / كان الضابط شديد اللهجة هذه المرة.

- أ....نعم.... نعم..... نعم..... نعم.....

نبس عمّار الأحمد بين شفتيه نبسة طويلة بلفظة ((نعم)). وسكت. كأنه عجز عن الكلام، إزاء هذه الطامة التي فاجأته.

- الجنود في حراســتها من كل جانب. وما عليها إلاً أن تركـب هودجهـا، على نـاقتهـا، وتجلس في مركبـة خـدرهـا. وتطلق، كع-طفـة، زغـاري-دهـا و(هيهيـاتهـا) المرنـانة، في تشـجيع الجنود. وبث الحماسـة في نفوسـهم، للصـمود والثبات بوجه أولئك الكفار أهل الجبل.../ أخرج هواء شهيقه بالكامل، من صدره، وتابع:

- لن تغيب عن قرية نوى سوى يومين اثنين... فقط... هيء ....هيء - وضحك باستخفاف - لأن حملتنا المظفرة بعطف-تها الميمون-ة. ستدح-ر ((الأشرار)) ونعود إليكم تحت خفق رايات النصر.

نتقَ عمـار آهـة أخرى: ((آ.... ه ه.......)). وتوقف. مازال مرتجاً علي-ه، من أثر الصدمة. ولكن ابن المذيب، عمه، استدرك الأمر. وتكلم عن صـهره:

- لا يســعنا، يا عطوفة اليوزباشـــي إلاّ أن نمتثل للأوامر السـلطانية. ومن يمثل تنفيذها، من الولاة، والقادة الضـباط..../ وكان قد تلاشـى صـوته، في الأخير، حتى الهمس. ثم انتهى به الأمر لأن يتكلم في ســره ويحمد الله تعـالى، لأن اقتصـــرت مهمـة ابنتـه على القيـام بـدور (العطفة).

ولن تؤخذ. كالعادة، محظية. أو تطلب زوجة لزير من رجال السلطة كالوالي. بل كالسلطان نفسه.

- شكراً يابن المذيب - ثم نفخ اليوزباشي إكمان نفس زفيره وتابع:

- يجب أن تتم التجهيزات اللازمة للعطفة في أسرع وقت ممكن.

****

لشدّما حل ب- (فرحة) المذيب من الحزن والانكساف، بعد اجتماع المضافة ذاك، وراحت تندب حظها بهذا الجمال الذي انقلب عليها بلية. ونسيت ما كانت تشمخ به، وهي تميل بقدها المياس، حين تسير في طرقات قريتها نوى، وتمشي بزهوٍ وافتخار. فتتبعها العيون، وتشرئب نحوها الأعناق، من كل جانب: ((ملاك هبط تواً من السماء....))!

نعم أحبت فرحة هذه، مثل كل البنات اللواتي في سن صباها. أحبت الشاب عمار الأحمد ابن قريتها وأخلصت له.

فبادلها هذا الشـاب الحب نفسـه بعاطفة مشـبوبة، وكان بدوره يضارعها فتنة وإغراء تجاه فتيات نوى.

إذن فليتحابا حتى درجة التماهي في العشـــق. وكم التقيا خلســـة عن عيون الأهل، في الليالي البهية، تحت ضـوء القمر الفضـي. وتبادلا نظرات الإعجاب للمتيمين. ولواعج الشـــوق للمحرومين. ليعيدا بدورهما، ســـيرة (جميل وبثينة)، و(قيس وليلى). في الحنين والشـــكوى. وبـث حرارة اللقي-ا، ثم يختتمـان هـذه ((الأمســيّـة)) المســروقـة من طي الزمن بتنهيدات الفراق، وآهـات لوعته، مع الأمل بســرقة ليلة، ماتعة أخ-رى. ولكن لا ينسيان في الوقت نفسه، صب اللعنات كيلاً تلو كيل، على الخدمة الإجبارية و(ســوق القرعة) في الجيش العثماني، فقد أجل موعد الزفاف إلى إشعار آخر.

وفي اللقاء الأخير، بعد اجتماع المضافة المشؤوم:

- حبيبتي فرحة. أخشى عليك بهذه (العطفة).

لاحت فرحة بيدها منديلاً. كانت قد نســجته وطرزته لخطيبها. ودسته في يده. وأحدثت له غنة كظبية:

- أتكل على الله تعالى، يا روح قلبي.

- وأنت مهجتي في القلب. هذا الذي يتفطر عليك.....

عاجت بعنقها، بدلال، في غبشة الليل. وتنهدت:

- حبيب-ي عمار الدنيا كلها لا أبادلها بقلامة من ظفر خنصرك.

- وأنت عندي الدنيا كلها.... والحياة كلها.... و((آ.... ه...)) / تنهد بحسرة. وتابع:

- الله على السـلطان وإجباريته... أف ف ف! / نفخ بقهرٍ:

- لو قبل أبوك بزفافنا قبل ((السوق)).

ردت عليه فرحة بلهجة هادئة:

- لا أحد يعلم بالغيب سوى صاحب الغيب جلّ وعلا.

- طيب، طالما لا محالة من أن تكوني عطفة حملة والي دمشق. فاطلبي من الوالي إعفائي....

ثم غام الاثنان بصمت، تحت أسجاف الليل البهيم .

****

الفصل السابع

استعراض الحملة

في خراج بلدة ازرع، وقرى (محجة)، و(الذنيبة)، و(الفقيع)، و(تبنة) شمالاً.

و(الشيخ مسكين) غرباً. و(ناحتة)، و(انخل)، و(رخم) جنوباً.

و(بصر الحرير) شرقاً، وما وراءها، وهو ذاك البحر الذي تشكل بلون الزعفران، بعد الشروق.

في هذه البقعة المحدودة، من العالم.

التأمت جحافل حملة والي دمشق، محمد باشا القبرصي، فامتلأ المكان جلبة. وافعم الهواء برائحة عرق الحيوانات والبشر معاً. جراء الحركة الدائبة. الفرسان كل منهم يستحث جواده هذباً وخبباً، ليكون في أتم

الجاهزية والاستعداد للاستعراض. وهكذا شرعت السياط تلفح أكفال الخيول لتزيد من زنخرتها، وعنفوانها في الاجتماع العام.

فاحتشدت الطوابير المدججة بأحدث الأسلحة المتطورة - آنذاك - الثقيلة منها والخفيفة. والجماعية والفردية. لتكون هذه الحملة، التي ستستعرض بعد قليل، هي الحملة الأولى والأخيرة. في مقابلة أهل الجبل العصاة. والقضاء عليهم، وسحقهم حتى الإبادة التامة.

أجل. الكتائب احتشدت . وكانت قد نصبت منصة عالية كبيرة، منذ الصباح الباكر، في وسط سهل ازرع الفسيح. عبرت فوقه غيوم بيضاء ن-دية. اتجهت نحو الشرق. حيث تحتضن سماؤه اللاذوردية الأسيلة التلال والهضاب والأودية، المحملة بأنفاس الأشجار العطرة. والمتماوجة بحلل فضية زاهية. نسجها ريق الصباح على هاتيك السفوح المخضرة، بفعل وهيج الشمس الشارقة فوقها.

بلى، قبل أن تصعد هذه الشمس ضحى نهارها. صعد تلك المنصة سعادة الباشا - القائد العام للحملة - الوالي

محمد القبرصـــــي. وبدا أكثر ما هو فيه من عظمة؛ ليس جنرالاً فحسـب. بل يبعث منظره هذا جلال الأباطرة السالفين.

وقف شـــامخاً بقامته العارمة. وبذلته العســـكرية - ((الرســـمية)) - الخاصـــة بمناســـبات الاس-تعراض والاحتفال. كانت بزة الب-ذلة ذات ((شـــراشـــيب)) و((دنادش)) وتزاويق كثيرة، مطعمة بخيوط من القصب الأصفر اللماع. فصارت تشع كأنها صنعت من الذهب الخالص. وتحتها سروال خيالة ضيق مقلم بالأحمر. بزر صـــدره تحت وجهه الأنمش وأنفه الأقنى يلصـــف بكل ألوانه وأضـــوائه. أمســـك بيده اليســـرى عصـــاه ((المارشالية)) المعقوف طرفها بما يشبه رأس النسر. ثم وضـــعها تحت إبطه. كما يفعل (جنرالات) الجيوش الكبرى، وأطلق يده اليمنى، لردّ التحية لضـــباطه وجنوده في الاســـتعراض الكبير. اعتمر على رأســـه طربوشـــاً أحمر، ((كلون الدم الق-اني، الذي ســـيدعج قريباً على الأرض الشـــرقية القريبة، من مكان هذا الاحتفال....)). كانت تؤطر طربوشـــة دوائر من خيوط. صـــنعت من الفضة، الناصعة. ثمة هبة ريح قوية.

غذت خطاها متواثبة نحوه. كادت تنتزعه عن رأس صـاحبه المنتصـب كالنصـب. وكم خالجت هذا النصـب المصمود، الذي يعلو ويهبط صدره بالتنفس، مشاعر التيه والخيلاء. وأججت في نفسه نيران الزهو والكبرياء. حتى احمر تماماً وجهه السمين الحليق.

أجل. إنه ليوم أغر. هذا اليوم، في تاريخ هذا الباشـــا الشـخصـي. لذا نسـي كل تفكير معاكس لما هو مشـغوف به...

نعم، من يَرَ هـذه الطوابير المطوبرة، على مـدى مرمى البصـــر، التي لم تجهز مثلها في حملة عســكرية، منذ عشرات النسين؟ لا تدخل في روعه مخاوف الفشل. أو تتسلل إلى حسبانه.

- ((لله دركم أيها العســاكر البواســل.....))! / حدأة ســوداء حومت عالياً. في ســماء الاســتعراض. لم يعرها اهتماماً. التفت يمنة ويســرة. ازداد بنفســـه عتواً أكثر. ولاسيما حين أخذت النجوم تتلامع على كتفيه تحت أشعة الشـمس، وتسـطع في عينيه. ابتسـم تحت شـاربه الكثيف المسود، الذي ظهر مروساً معقوصاً، من

طرفيه، كعقربين متقابلين. أحنى رأسه ليرى صدره. كاد يسقط طربوشه على خشب المنصة.

عدله بيده اليمنى. ثم شق شفتيه: ((.... يا.... ه! يا للأوسمة اللامعة التي تملأ صدري....! لم تكن هذه إلا شهادة ناصعة ودلالة بينة على سجلي العسكري المشرف...)). وعبرت ذهنه ذكريات مجيدة متوهجة، كلمع البرق، عن الأيام الخوالي. وما نال فيها من الثناءات الحربية مكافأة على بسالته في المعارك التي خاضها في بلاد البلقان.

- يا للقائد الشجاع، أنا، والي دمشق محمد باشا القبرصي. / وأوشك أن ينفجر بضحكة مجلجلة، ابتهاجاً بنفسه، بعد أن نبش ذاكرته، ولكن لحسن حظه، هدر صوت عظيم:

- سيدي الباشا، قطعات حملتكم العسكرية الضاربة. جاهزة للاستعراض، بصنوف أسلحتها..../ كان هذا الصوت العظيم، من الضابط الفارس، الذي ترجل. وأمسك شكيمة جواده، بيده اليسرى ليحرر يده اليمنى، لأداء تحية انضباطية، لا مثيل لها. باعد ما بين ساقيه ودق

الأرض تحته بجزمته الملمعة التي ينتعل.... من المؤكد أن سعادة الباشا، ذهل من الصوت والتحية معاً. وصار كمن استيقظ من سكرة ساحرة. أوعل بالضابط نظرة حادة كسيف قاطع:

- أوافق على الاستعراض، يا بكباشي أوغلين.

ثم كانت من هذا الأخير تحية ثانية. تشبه الأولى بشدتها وأدائها، للقائد العتيد. وكأنه يريد أن يستنبط الماء، هذه المرة، منا قاع الأرض بجزمته التي اتربت. ثم إيعاز من هذا (الأوغلين): ((كتائب استعد)). واتبعه بإيعاز آخر: ((كتائب سرْ)).

وبدأ في الحال مرور الكتائب المتلاحقة، أمام المنصة الرئيسة. وأخذ الوالي يرد على تحيات قادة القطعات، من ضباطه الأشاوس. ثم مرت الكتيبة المميزة - وهي أقوى الكتائب - كان يتوسطها ناقة شقراء من فصيلة الهج-ن. أثبت على سنامها المملوء بالشحم هودج مزركش بالبسط والستائر ؛ إضافة إلى زخارف العلائق والغرائر الصغيرة، التي كانت تتشابك، وتتمايل، محدثة صوتاً من الخشخشة الناعمة.

ظهر الهودج بارزاً على ظهر الناقة المحفوف، من كل جانب، برووس الجنود من الفرسان والمشاة، كمركب صغير يعوم فوق أمواج متواثبة من البشر. وبانت من نافذة خدر الهودج فتاة ذات عصابة خضراء.

تلامع تحتها وجه مثير. شعّت هالته مثل كوكب باهر أعشت عيني (الباشا).

- ((ياللوجه المشرق كالشمس))!.

ثم حدق الباشا مرة أخرى، من تحت حاجبيه الغليظين، إلى الهودج. ابتسم من أعماق أعماقه. رأى (تلويحة) باليد الناصعة. أجل، لقد أدت (العطفة) التحية كاملة. حسب التعليمات التي تلقنتها في يوم أمس.

ثم صوت أنثوي رخيم: ((النصر لكم. سعادة الباشا)).

طفح وجه الباشا بالبشر. وألصق كفه اليمنى المفتوحة، بمخمل طربوشه. ليرد (للعطفة) تحيتها الرشيقة. كان يود أن يستديم النظر إلى هذا الجمال الباذخ. ولكن تقدم قائد الكتيبة بفرسانه، ليفسح المجال للكتيبة

السـادسـة. ومر فرسـان هذه الكتيبة وهم يعتصـمون بقرابيس سـروجهم على جيادهم المطهمة. وحيوا قائد الحملة العام، وهو واقف على المنصـة وقد جهم وجهه، وعبس أكثر. بينما خيول الفرسان كانت تهذب وهي تلوح بذيولها الطويلة. طبعاً ردّ هو التحية لقائد هذه الكتيبة. ولكن ظلت خمائر أنثوية تعبث في خياشـيمه من عبق الكتيبة الخامسـة. وتمتزج مع أحلام الفرح بالنصـر القـ- ريب. وبمخايل الأبهة العسـكرية وغطرفتها المعروفة. - ((يا..... ه، يا لأنا))! -

على كل حال، بعد انتهاء استعراض الكتائب. اطمأن الوالي - الباشـا - إلى جاهزية حملته المظفرة التامة. ولاشيء، يؤخّره عن الزحف صعداً نحو الشرق.

ثم راح يصـغي لما تحّدثه به نفسـه، في شـأن آخر.حقيقة، كان رجلاً ذا دهاء عجيب في تأمين مصلحته الشـخصـية. فلم ينسَ عاطفته المشـبوبة، التي تأججت في فؤاده منذ أن قابلته (العطفة)..... ((آ... ه-...! يا لهذه الفتاة النيرة التي حصـلت عليها.....)). / نفخ هواءً لاعجاً. ((.... ولكنها مخطوبة)).

هّزَّ كتفيه دون اكتراث. وهو ســـادر على منصـــته، ((.... حط في الخ-رج))! ثم التمعت أســـنانه بضـــحكة ممراحة: ((..... من حق الخطيبة أن تفســـخ خطبتها قبل الزواج)).

ثم طمأن نفســه أكثر: ((وليبق هذا الأمر معلقاً إلى ما بعد المعركة)). إذن، يجب الإسراع في خوض معمعتها.

****

لم ينم بعد الغداء، كالعادة، ظلت غبطته تطفح على وجهه، دون انقطاع:

- يوزباشـــي (إكمان). إئتني بالفتاة - العطفة - حتى أراهـا، من جـديـد. واطمئن إلى حســـن أداء مهمتهـا العسكرية، في حملتنا.

- أمركم مطاع سيدي الباشا.

وعند الأصيل، في اليوم نفسه. استوذن عطوفة الباشا في الدخول ؛ الذي كان في حالة انتظار صـــعب. يذرع الأرض، داخل خيمته، ذهاباً وإياباً، بخطوات واســـعة مضطربة. لا يعرف أين يضع قديمه. ثم اعترته أنفاس

لاهثة لاهبة. وكاد فراغ صـبره ينتهي. لولا أن سـمع وقع أقدام أخ-رى:

- ادخل.... / صـــاح بصـــوت أهوج. كان ما يزال مرتديا بذلته العسكرية الرسمية. بل صمم عن مقابلة الفتاة التي سحرته بها.

دخلت الفتاة بصـحبة أبيها ابن المذيب. طبعاً شـع، في الحال، طوفان من الانبهار في الخيمة، عندما التمع الشعر الأســود كشـــلال ليلي. وشـــكل هالة بديعة حول الوجه الأبيض الفتـان. وفـاحـت معـه. بـل منـه، رائحـة الطيـب المندى بالمسك والزباد، ضاعت في سائر الأرجاء. تملى الباشـا الرأس الشـموخ وعقص الشـعر الغزير. وقرص الفضـــة في الوجه الباهي. و... ولا يعرف كيف عاد إلى رشده ونطق، بعد أن انسلت عيناه كسحلية. وكاد يرتكب حماقة:

- أهلاً وسهلاً، بكما... تفضلا.

جلس الوالد الذي تخضـل جبينه بالعرق. وظلت ابنته واقفة كالمومياء. وقد انسدل عليها ثوبٍ من حرير

(الســاتان). تتبارق على نسـيجه مطرزات يدوية من نمنمات وتخاريم، محوكة بخيطان من القصـــب اللماع. جلس الباشـــا على كرســيه. وعاد إليه شــــيء من اتزانه ووقاره، كقائد عام:

- اجلســـي، يا فرحة المذيب، كنت اليوم مجلية في الاستعراض.

ارتعشت شفتاها الرقيقتان بالكلام:

- شكراً سيدي الباشا. / ردت بخشية بالغة. ولا تدري لِمَ اختلج قلبها بدرجة مفرطة؟ ولم تعد كما كانت يوم أمس، تردد الكلمات التي تلقنتها، وحفظتها استظهاراً؟.

ثم قال والدها:

- هذا واجب يا عطوفة الباشا....

غير أن هذا الباشـــا المشـــبوق. لم ينتبه لكلام ابن المذيب. بل طغت عليه عيناه الماكرتان. وطمســتا ســمع أذنيه. وظل يلتهم بهما (الفتاة - الوليمة) بشراهة زائدة..... ((يالها من فتاة يانعة! إنها كتفاحة ناضـــجة!... الوجه البدري!... البشــرة... الأنوثة....))! ثم صــاح أخيراً دون وعي:

- يا أردوناز.... يا عسكري.... شاي.شاي...

وفي أثناء احتساء الشاي:

- أيتها العطفة الجميلة. ستجعلين بأنفاسك العطرة، وزغاريدك المصداحة جنودنا، يتسابقون على الموت في المعركة. بدلاً من تسابقهم إلى الهرب.... هئ.... هئ.../ وقهقه بضحكة عالية.كما يفعل الكبار من القادة.

- ولكن لي خاطر عندك سيد.... /

قاطعها:

- اطلبي. فخاطرك مقبول عندنا.

- أريد إعفاء خطيب-ي عمار الأحمد من الخدمة الإجبارية....

ذهل الباشا، لهذا الطلب الخطير... ((إعفاء خطيبها من إجباريته. يشكل مزاحمة حقيقية لي... فكيف الحل يا مرحوم الوالد.....)).

قاطعت تفكيره:

- أجل. ماذا أمر سعادة الباشا؟

((أف! صـــــارت تتكلم وتلح عليّ بجرأة غير مسـبوقة.... لا شـكَّ أنها تحب خطيبها بإخلاص.... وهذا ما دفعها للكلام.....)).

ثم ابتسـم لها وبانت أسـنانه البيضـاء تحت شـاربه المفتول. ألاح بطربوشـه، الذي تناثرت شـراشـيب طرته على المخمل القاني:

- بعد المعركة سيلبى طلبك، يا (عطفتنا) الغيداء.....

بينما قال والدها، من ناحيته:

- نحن امتثلنا لأمركم في الحضور، سعادة الباشا.....

شهق الباشا، وانتفخ صدره هواء:

- دعوتنا كانت للاطمئنان، لا غير.

- إذن.... بخاطركم.... هيا يا بنيتي فرحة. / نهض ابن المذيب وتبعته ابنته، وهي تميد بقدها وكأن الأرض تميد معها. وتركت الخيمة الفارهة بعد أن رشـــت عليها نثار جمالها. ثم شقت طريقها، مع أبيها، بين جنود فصيلة الحرس، الذين اصـــطفوا على الجانبين، ليكحلوا عيونهم بالمرأى البديع.

لشدّ ما كانوا في خدمة إجباريتهم محرومين من رؤية مشـــاهد رائعة كهذا المشـــهد.... ولكن عاد وهدر صـــوت الحـاجـب، من الخلف. أوقف موكـب الجمـال المتهـادي، ليحل عليه البهت والانكماش:

- يا بن المذيب....سعادة الباشا يريدك ثانية.

ثم:

- يا بن المذيب دونك هذا الكيس، هو هدية لك. وزّع من ليراته الذهبية، على من تريد....

****

الفصل الثامن

تجهيز المقاتلين من أهل الجبل

تابع الشيخ جاد الكريم العابس، بعد مغادرة ضيفه ابن قنديل إلى قريته (رخم)، في حوران. تابع مشـيته الوئيدة. يذرع أرض المضـــافة، دون انتظام. رافعاً في فضـــائها قامة مديدة تقارب المترين. بجســـم عبلٍ تنقله رجلان طويلتان، كقائمتي جمل. كان شـــارد اللب. اسـودت الدنيا بعينيه كبحر أطلس. بســـمل عدة مرات وحوقل. ثم أطلق جئيراً ينم عن ضيق:

((يا للحرب الطاغية! الله ينجينا من غراب شؤمها))، خلل لحيته البيضاء بأصابع يده اليمنى الخشنة.... ثم رفع عمامته عن رأســه الحليق. المسـتدير. وتركه كقبة مزار، يرى من بعيد.... علةّ يسرح عنه ما احتبس فيه.

وقف قبالة النافذة الشـرقية، من المضـافة. كانت شـمس الضـــحى المتوهجة تضـــرم نارها بصـــمت وروعة، فوق الأحراج، وبطاح السفوح. وبدت قمة القليب في الأعلى مثل قرص عســـل أشـــقر، أســـرج عينيه تحت حاجبين كثين منعقدين على نحو يوحي بالشـــدة والبأس، تواردت عليه تداعيات حميمة. صــارت كل شـجرة رآها في تلك الغابات تثير في نفســه جمّ الذكريات. ثم لمس كرتي عينيه، لتركيز الرؤيـة. ظهر أمـامـه مرة ثـانيـة مـا انـدرج، على الســفح القريب، من مصـــاطب وجلالي. وما بني عليها من بيوت. كادت تضـيع بين أدغال الشـجر (الجوي) و(البري) كالبطم والسنديان والزعرور.... لولا أن انعقد فوقها دخان حلزوني ما لبث أن انتشر في الفضاء. ثم تلاشى في السماء البعيدة.

يا لها من مناظر خلابة تأسر العين! ولكن أين الشيخ جاد الكريم منها؟ لقد غابت عنه. بل غاب هو عنها في دهاليز غيا هبه. يمّحي في هواجس فكره.

تذمر. لا ثقة له في هذا العالم الذي يعيش. ((أف...! لا وجود للحقيقة بالبتة في هذه الحياة الدنيا..))!

أجل، بينـه وبينهـا عداء مزمن. ليس هو هيّابـاً. بـل عرف

بين قومه كرجل قارح مجرب. ولكن هذا العالم الذي يحيا فيه هو الخائن. لِمَ لا يســـود الســـلام فيه، ويعم بني البشر كافة ؟ فكم مرة جعل أوداجه تنتفخ والدم يزدحم في أوعيته؟ وكم مرة جعل عينيه تبعثان إشارات حمراً؟ دليل الخطر الضـــاغط حتى الموت؟ ماذا يريد من أهل الجبل المغســـول بالدم. فهـا هي ذي حرب (إبراهيم باشـــا) ما زالت (على الأبواب).لم يستجم الناس من أهوالها بعد. ثم تلتها حرب (ساري عسكر). وها هو ذا والي دمشق محمد القبرصـــي يعلنها على الجبل حرباً عشــواء. لا شــكَّ إنه لإبليس عنيف هذا اللعين. ستكون حربه مدمرة. الله يجير العباد منه.

دارت عيناه في محجريهما بشـــرر متطاير. وشـــهق أنفاســـه بضـــراوة. كرر هذا ((النفخ)) عدة مرات ؛ حتى صـارت رئتاه تشبهان شكوة مخيض. صـرّ على أسنانه القديمة: ((ماذا يريد منا هذا الوالي الظالم))؟

- ((أو و..... ف ف.....))! / شخر. ثم أعاد لفته على رأســـه. اتجه نحو الأعلى . بوجهه اللحيم المنتفخ كطلمة. وقد جهمت عضلاته أكثر من اللزوم. إنه ما زال يتظاهر

كرجل حرب عتيق. ج-أر علاني-ة: ((حسبنا الله ونعم الوكيل))! ثم دعم دع-اءه بع-دة فص-ول حكمية: ((..... والله نعم المعين وخير النصير)).

عاد إلى جلسته المعتادة في صدر مضافته، وأمضى سحابة من نهاره، في هذه الخواطر....

وما أن قارب العصر:

- تحية يا شيخ جاد الكريم والسلام... / دخل الشيخ صالح الداود. وهو كهل تجلله عباءة سوداء سابغة من صنع (الجوف). ذو شارب طويل. يدل مظهره على أنه رجل شجاع. كان يغطي بكمه الخاوي ذراعه المبتورة، التي أعطبت في حرب إبراهيم باشا.

أجاب الشيخ جاد الكريم، بعد أن وقف احتراماً، وتقدم منه:

- أهلاً وسهلاً بك يا شيخ صالح.

وبعد مصافحته:

- أين بقية الرجال؟

- في الطريق إليك.

- تفضل اجلس. وهاك فنجان القهوة....

ثم:

- السلام عليكم....

- السلام عليكم....

بعد ذلك. أدار الشيخ جاد الكريم، بنفسه فناجين القهوة المرة على الحاضـــرين، الذين تلازوا على الدكة. نظراً لكثرة العدد.

- يا إخوتي، يا أهل المروءة. إن اعتصـــامنا بجبلنا، ورفض الخضوع للمحتلين، جلبا على رؤوسنا البلايا.../ توقف قليلاً الشيخ جاد الكريم، ليرفع حنجرته ويبلع شيئاً من البلغم الذي اعتراها.

ثم تابع:

- جاءني مخبر صـــادق من إخوتنا بحوران. قال لي: إن جيشـــاً عثمانياً عرمرماً قادم إلينا، لاحتلال جبلنا..../ عطس في كفه. وحمد الله تعالى وتشهّد.

ثم:

- يريد هذا الجيش الطاغي قتلنا، وتدمير قرانا،

وسبي نسائنا..../ لَهَث وسكت. أشخص المجتمعون عيونهم به. لمس سحنته بيده. واستل من فمه هذه الكلمة.

- والرأي ؟

-.... / صمت أطبق إلى هنيهة. ثم:

- نفزع إلى لجاتنا. كما فعلنا في حروب إبراهيم باشا./ أجاب أبو محمود سالم. ذو الوجه المحروق، الذي ما زال مبقعاً بآثار البارود الأسود، من طبنجة انفجرت به. وكان الكل في القرية يشهد له بالشجاعة ويحترم رأيه. ولكن هذه المرة سفه:

- ضيق الوقت لا يسمح لنا بالرحيل. فالعدو سيدهمنا في الطريق، يا شيخ سالم.../ صدم في هذا الاعتراض من الشيخ صالح نفسه. بينما صاحب السؤال (المعزب) بقي صامتاً:

-....../.

وبعد ((أخذ ورد)). ولغظ كثير. و((ليس للأعداء عندنا إلا البارود واليوم المقرود)).

ثم جرى سرد سيرة طويلة عن السلف وأفعالهم.

واقتـداء الخلف بهم, والتفـاؤل بربح المعركـة, حتى التراقي.

صفق الشيخ أبو يوسف سليمان:

- الهدوء... الهدوء يا جماعة....

وعقب السكوت:

- عندي رأي أيها السادة المحترمون:

ما هو يا شيخ سليمان؟

- نبقي النســـاء - طبعاً غير المشـــاركات في خدمات المعركة - في القرى من أجل الاسـتبسـال أكثر في الدفاع عن العرض....

سعل: أحْ..أحْ...

تابع:

- من المؤكد هذا الأمر يحتم علينا أن نن-زف دماءنا قطرة قطرة في حماية عرضنا وجبلنا...

- إذن يجب أن نقابل الحملة.خارج حدود الجبل....

هـدر صـــوت جمـاعي كـالرعـد. خيّـل للمعزب أن مضافته انهارت, وأيضاً:

- يا لحماة العرض والأرض, أيها الكماة. و..

عجّت نخوة ودبت حماسة....

وبعد لأي تكلم المعزب بصوت هادئ رزين. ليمتص به الضـجـة. ويدير الأمور بحلم كوجيه معروف في مجتمعه:

- يجب.... أن نوزع.... (المفازيع) على القرى....

تنهد وتابع:

- نعم.... نعم... وليكن الاجتماع غداً هنا, في (سهوتنا).

رد الشيخ صالح الداود:

- ولتكن قيادة مقاتلينا تحت إمرتكم, يا فضيلة الشيخ جاد الكريم...

التفت إليه:

- لا تعترض رجاء.

طبعاً الشيخ جاد الكريم ليس هو الشجاع الوحيد, من رجال الجبل. ولكن له حظوة وتاريخ مجيد. ولهذا رشـح لهذا المنصب. وبما أنه يمتاز بينهم بالتواضع الجم رفض:

- أنا... أصغر... أنا أقل.... أ...

- لا تعترض يا شيخ جاد الكريم.

- الإمرة في القيادة حق لك. وأنت أهل لها.

- حروب اللجاة مع إبراهيم باشـــا, وقبلها, وبعدها, تشهد لك.

ثم أكد الشـــيخ أبو محمود ســـالم كل ما نثر من در الكلام في الشيخ جاد الكريم:

- نعم الشيخ جاد الكريم ذو وجه أخضر في القتال, لا يعرف الانكسار. ولم يخسر في غزوة أو حرب من قبل.

اعترض الشيخ جاد الكريم مرة ثانية:

- دعونا من الإمرة. فكل امرئ, منا, آمر نفسه.

أجاب صوت مجهول:

- الجسم له رأس... وفهمكم كفاية يا جماعة.

وهكذا قفل الكلام. واختتم الاجتماع.

****

يا للهول! ماجت كتلة واســـعة بيضــــاء كبحر من الكوفيات والعمائم, في ميدان الســهوة. أصــوات النخوات تتعالى من أفواه المقاتلين, في الفضــــاء. كأن رعداً بدأ يقصف فوق القرية, لتردده قيعان الأودية وبطاح السفوح والوهاد:

- يا لعينيك يا شيخ جاد الكريم...

- يا لصون (الحرائر) ذوات اللثام...

- لعيني خطيبتي سلمى.

صاح شاب, قد طر شاربه حديثاً.

يا للذؤابة المعقوصة في رأس زوجتي أم سلامة.

فغر فاهه مقاتل كهل

- يا لحماة الأمهات والأخوات.

صوت مختلط طغى على كل الأصوات.

وارتفعت الأيدي تليح بالعمائم وكوفيات الشــاش.حتى غلى الدم في العروق.

في حقيقة الأمر. كانت ســاعة رهيبة, في ميدان قرية السهوة الفسيح المعدّ لإقامة سباقات الخيل (البراجيس) -

جمع برجـاس - كـأن القيـامـة قـد بـ-دأت, في هـذا المكان. ولكن حكمة الشـــيخ جاد الكريم وتجربته الطويلة دعتاه إلى أن يفطن بأمر هام:

- كفى... كفى يا رجال... يا نشامى... يا أهل المروءة والشـــهـامـة...ادخروا جهودكم وبـارودكم للقتـال في يوم المعركة....

- لعين-.../ ولكن الشـــيخ جاد الكريم أوقف المنتخي المجهول بإشارة لائقة من يده.

- هلموا إلى (معازيبكم)، الآن. وليكن السُّـــرى، في البكرة غداً.

****

كان قد تحصـــل في اجتماع الســـهوة هذا، ما يقارب الســبعمئة مقاتل. لبوا نداء (المفازيع)، بدعوة ســـاخنة، من ((عقيدهم)) الهمـام الشـــيخ جـاد الكريم. كـان معظمهم من الفرســـان الممتطين صـــهوات خيولهم المطهمة وشـــاكي السـلاح. وأنفـار منهـم رجالة. فتش-وا كثيراً في ج-يوبه-م و(جزادينهم) عن ثمن حصـــان. ثم اعتمدوا على أرجلهم القوية المتينة.

كان كل مقاتل يتقلد سيفاً أو رمحاً يبرق سنانه، فوق رأسه، كنجم. والقليل منهم من يحزم خصره بنطاق بارودة كسبها في حروب إبراهيم باشا. أو ورثها عمن كسبها، من أسلافه المحاربيين.

من الطبيعي، أن من كان يحمل فوق كتفه بارودة من نوع (أم زر). أو (أم زلاقة). أو (أم ولاعة بوليكية / بلجيكية). أو حتى طبنجة أو غدارة. من الطبيعي له أن يتبختر بها. فوق سرج جواده، بحومة الميدان.

وقد جرت على السنة المقاتلين أحاديث كثيرة عن ذلك.

- مازلت يا هواش الحمد محتفظاً ببرودتك البوليكية منذ سبع عشرة سنة؟

- هذه غنيمة ثمينة. ولا أفرط بها. فهي من كسب والدي حمد المسعود في حرب اللجاة، يا سليم الغانم.

أجاب سليم هذا:

- عال! عال! هذا هو المطلوب.

- نعم يجب أن نحرص على البواريد حرصنا على بناتنا.

ثم هدر صوت من الشيخ (القائد):

- لا تنسوا أيها الشجعان، زك-ائب الزواويد الملأى بمربى التين والعن-اب و.....

****

- أواه...! كم ستقتل من جنود حملة (القبرصي)، ببارودتك هذه يا مرهج الفهد؟

- الله تعالى يعلم. ولكن لا تنسَ، يا مرشد الحسن، إن رص-اص بارودتي (أم زر)، لا يطيش.

ثم زنخر به حصانه الأبلق، وكاد يرميه، إلى حد السقوط، وهو يعبر بوابة دار (معزّبه).

- هذا حصان ربيط. يستعجل المعركة، يا مرهج.

ابتسم مرهج الفهد:

- بل اشتاق صاحبه لحومة القتال يا بن الحسن.

- لم لا تسرج الأدهم تحتك، يا مرهج؟

- اعتمد على اللجام لا على السرج....

في هذه الأثناء. زفر المقاتل الثالث الذي عبر البوابة معهما على رجليه. زفر آهة موجعة: ((آ.. ه..!)).

- طولت آهتك يا إسماعيل الهاني.

- زفرة آهتي كاوية وذاوية في آن واحد، يا بن الفهد.

- خير....؟ أ... لأنك ترفع على كتفك هراوة لا بارودة. ودون فرس؟

- لا تسل عن بؤسي. بعد أن مات حصاني (حجيلان) في القنص.

- حتى لا يطول وقت كسبك فرساً، أو بارودة، من غنائم المعركة. اذهب إلى قريتي (حبران) القريبة من السهوة. وقل لأم عيالي: أريد البارودة الثانية لزوجك مرهج الفهد وهذه علامتها.../ وسلمه مرهج منديلاً مطرزاً عليه اسمه.

- والله هذا كرم يا مرهج / أجاب مرشد الحسن، والفرح يشيع ملء عينيه.

****

وفي زقاق آخر من أزقة السهوة. كانت كوكبة قرية قنوات. معظمها من الفرسان الخيالة. اعترضهم (معزب) كريم. بعد أن أوردوا خيولهم على بركة القرية.

- يابن جزان. أنت وتجريدتك، في ضـــيافتي..../ ثم أكد الشيخ أبو يوسف سليمان:

- يا وهبة. الدار واسعة. والمضافة مشرعة. هيا أنت وفرسانك.

ابتسـم الفارس وهبة للمعزب الشـيخ. وبانت ثنايـاه في ثغره:

- دعوتك مقبولة على الرأس والعين يا عمي سليمان.

أجل. إنه لشرف كبير للشيخ أبي يوسف سليمان، أن يحـل عنـده وهبـة جزان ضــيفـاً، مع مقـاتلي قريتـه قنوات.(فوهبة) هذا. هو الفارس الذي اشتهر اسمه، وذاع صـــيته في الفروســـية، منذ نعومة أظفاره. كأنه فارس بالولادة. نما هذا الفتى، وشبَّ، بعد رحيل والده هزاع إلى ملكوت السـماء شـهيداً، في حروب إبراهيم باشـا. فصـمم منذ صغره أن يكون جسمه ممتلئاً مكتن-زاً ذا شدة وبأس ليأخذ بثأر أبيه لذا لا يعرف عدد كم أســير اقتاده، وربيط أتى به مكبلاً، انتقاماً، بعد غزوة رابحة أو معركة ظافرة. وكم اعتاد على مواجهة الموت وجهاً إلى

وجه بعد أن حرضــــته أمه، وأرشــــدته إلى أن يلج طريق الفتوة، علة يأخذ بثأر أبيه عندما عبرت الفرس، بوابة الدار، من غير فارســـها. وأخذت تصـــهل، وتحفر الأرض، حزناً وحســـرة، بســـنابك قوائمها، وتليح بذيلها الكث الطويل، بقوة. تلسع به جنوبها. وكأنها تندب فارسها القرم الندب، الذي ارتمى عن صـــهوتها قتيلاً في ســـاح المعركة. كعاق-لة تفه-م. لا كدابة بهيمة خرساء. فصدق من ق-ال: ((إن للخ-يل ك-ثيراً من شيم البشر)).

لحظتئذٍ وثب قلب الزوجة - أم وهبة - من مكانه. وأقامت الدنيا ولولة على زوجها - أبي وهبة هزاع - ولم تقعدها.خمشت وجهها. نتفت شعرها. و.....

ولم تكف عن إظهار آلامها المريرة في مصــــابها الجلل، إلا حين صــــار ابنها الوحيد وهبة شــــاباً يخوض المعارك والغزوات اندفاعاً وانتقاماً لاســتشــهاد أبيه على ظهر جواده الكميت - الصميدع - مع فرسان قريته قنوات ضمن كوكبات مقاتلي الجبل.....

نعم. لقد تغنت صـــبايا قنوات كثيراً ببطل قريتهن الفارس الشـــجاع وهبة جزان، وهو يشـــارك في صــــد العدوان

عن حياض الجبل الأشـــم مع إخوانه المقاتلين. ومما يكمل ســيرة هذا - الماجد. أنه تربى - إضــافة إلى منبته الجبلي القاسـي، وملازمته الأراضـي الصـخرية الصـعبة. ومسالكها الصلبة الوعرة - تربى في بيت ميسور الحال، نوعاً ما. تركه والده بعد استشـهاده. وكان معروفاً بتربية الخيول العربيـة الأصـــيلـة. فهوي هـذا الفتى - وهبـة - ركوبها، منذ الص-غر. ثم ب-رع في (فن الطراد).(عندما يقام "برجاس" للسـباق). حتى اشـتهر به، بين فرسـان قريته، باسم الفارس الأول.

واستمر في حبه للحصـان والسيف والبرية - كأقانيم ثلاثة للفروســية - إلى أن اكتملت فيه خصــائص الفتوة. وتقدم في شبابه حتى بواكير الكهولة.

إذ ظل محتفظاً بمعين الشــباب الذي لا ينضـــب في حيوته وحركاته زمناً طويلاً.

كان يمشـــي في أزقة قريته قنوات الهونيا. ولكنه كان يسحق الحصى بقدميه، وهي تفرقع مفاصل رجليه تحته. كما يفرقع الملح على النار من شدة مشيته الشماء. ومتانة أعصابه.

حقيقة، كان يحمل على رجليه الصلبتين جسماً ضخماً بقامة ربعة.

وإذا ما أقبل يُظن أن رجلين اثنين التحما برجل واحد.

ومما اقتنى من الخيول جواداً أصيلاً. أسماه (الصميدع). كان هذا الجواد مطواعاً له. يلبي طلبه في جري السباق، إذا ما أقيم برجاس في ميدان القرية. كما يلبي رغبته، في مطاردة الغزلان والوعول بفيافي البوادي الشرقية والجنوبية.

أجل كان إذا ما نزل إلى حومة (البرجاس). وأغار نائراً على متن الصميدع. يحسب طائراً كبيراً مجنحاً، مندفعاً فوق أديم الأرض. ولا بد من أن يصهل هذا الصميدع، في آخر الشوط؛ ليدل على وعيه بالفوز الكبير الذي أحرزه، كحيوان ذكي. يفهم ما يقوم به، أو ما يريده، منه، فارسه الذي ما زال يعتلي صهوته.

هذا إضافة إلى ما كان يؤديه هذا الحيوان من فنون الألعاب التي تفرح القلب وتسرّ الخاطر.(كالبهلونة) في الحركات، و(الحنجلة) في الرقص. مثلاً يقف على

قائمتيه الخلفيتين، بعد أن يهد ويشـــخر مزنخراً. ثم يشب إلى الأعلى رافعاً قائمتيه الأماميتين. ماشياً. وصوت صهيله. يصعق الآذان.

إذن تمكن الفارس العتيد وهبة جزان، بمهارته. وعلو شأنه بالفروسية. وثباته على قربوص سرج (الصميدع)، من أن ينـال الحظوة من الجميع. ويلقب بـ- (شـيخ الشبان). ويتولى قيادة فرسان قريته قنوات، في المعارك والغزوات. وبخاصة حين برع في لعبة (السيف والترس) المحلية، على ظهر جواده. وصـار يضـرب به المثل في هذه اللعبة الخاصة بفن الفروسية. الأمر الذي جعله يتميز بضـرب السـيف. في معارك الحروب التي خاضـها مع مقاتلي الجبل: ((كانت من وهبة جزان ضـربة سـيف لا ترد)).

- ((ضـربة سـيفه كضـربة وهبة جزان شـيخ شـبان قنوات)).

- ((هذه زند تصـلح لضـرب السـيف كزند وهبة جزان)).

إذن فلا غرو. بل ليس من الغريب أن يجري اســـمه على ألســن الصــبايا المعجبات بشــبان الفتوة والشــجاعة. ويزداد عددهن باستمرار.

وليس من الغريب أيضــاً أن يصــر الشـيخ أبو يوسـف سليمان، في قرية السهوة على أن يحل هذا الفارس النجب في بيته مع كوكبته. وينال شرف ضيافتهم.

****

الفصل التاسع

العطفة وسير الحملة

دلف والي دمشق، محمد باشا القبرصي - القائد العام للحملة على الج-بل - إلى فرشته. بعد اجتماعه الأثير ب-(العطفة) - فرحة بنت المذيب - ونام ليلة حميمة. قضاها بدفء الأحلام. ودغدغة مشاعر النصر، ومخايل بنوده وخفق راياته. حتى راح ينظر إلى نفسه، من خلالها، كبطل لرواية أسطورية، تكلل رأسه باقات الغار، وطاقات الورد. يرفعه شامخاً وهو عائد إلى مقره الدائم في سرايا المرجة بدمشق. ويرى عن يمينه الفتاة - العطفة، التي كانت سبباً رئيساً، في هذا (النصر المبين). على أعتى قوم. عصوا طاعة السلطان. وخرجوا على أوامر بابه العالي، وصدره الأعظم، وولاته، منذ قرابة مئتي سنة.

تمرأى بطيفه، ووجهه يشـــع فرحاً، ونفســـه تفيض بهجة وســـعادة. وهاهو ذا يطل على جموع المســـتقبلين المحتشـــدين في ســـاحة المرجة العامة. ومرافقته العطفة بجانبه تسطع ضياء، وتتلامع ألقاً بأنوارها وفتنتها.

إذن صـباح هذا اليوم.كان فيه ((صـاحب الجناب)) - الوالي - ســـليم المزاج. منشـــرح القلب. بعد ليلة مزهرة بالآمال -- كما سبق --.

- يا بكباشـــي (أوغلين) جهز الحملة للمســـير، إلى المعركة.

- حاضـــر أفندم. / ودق الأرض بجزمته، وهو يؤدي التحية.

لم يمضِ وقت قصـــير إلا وكتائب الحملة مصـــطفة، بترتيب نظامي. حســـب الأصـــول العســـكرية العثمانية الخاصة بخوض القتال.

فاصـــطفت كتائب الخيالة (الفرســـان) في الأمام. ثم تلتها س-رايا الرج-الة (المشاة). وفي الخلف تموضعت

بطـاريـات المدافع وعربـاتهـا. وخلفهـا قوافل العتـاد وأكداس المؤن التي تحملها مئات من البغال.

وبيان سام، من القائد العام:

- ((لقد أزفت الســاعة للقضـــاء على العصـــاة الكفار.....)) / وبعد أن التفت يمنة ويســرة. بل صــوب نظره على (الناقة المهودجة) تابع:

- ((.... فلم التباطؤ))؟

كانت ريح شـديدة قد هبت في المكان. فأثارت سـحباً من الغبار، تعالت في الفضـــاء وطالت ذيولها الرمادية. أزعجت القائد الباشـا. ولكن لم يتشـاءم. بلا تابع مهامه في تسيير حملته:

- ســيدي الباشــا. الحملة على أهبة الاســتعداد التام للزحف....... وها هي.....

وكان ثمة خمســة عشـر ألف حنجرة تهدر في ميدان الاجتماع بهتاف الاس-تقبال:

- ((يحيا والي دمشق محمد باشا القبرصي)).

- ((كلنا فداء السلطان والباشا. و....)).

ابتسم الباشا، وبانت أسنانه البيضاء بصفين متلامعين تحت شاربه المعقوف. وكاد يحسد ذاته على هذا التقدير الكبير الذي حظيه من ضباطه وجنوده معاً. بل من السلطان نفسه الذي خصه بحملة استثنائية. لا مثيل لها. ألاح بعصاه المارشاليه، كنوع من رد التحية العسكرية لمساعده الضابط (أوغ-لين)، الذي ما زال واقفاً باس-تعداد ت-ام. ينت-ظر هذه ((الإشارة))، من رئيسه:

- احرص، يا أوغلين على هودج العطفة جيداً، وضع ناقتها، في المكان المناسب من الكتيبة الخامسة المميزة بتطور عتادها وقوة عناصرها فرساناً ومشاةً.

- أمركم سيدي الباشا مطاع.

ثم؛ تقدمت الحملة نحو الشرق، الذي انسد أمامها، بعلو شاهق من هضابه وقممه. وبان وكأنه سور عظيم أغلق العالم خلفه. إضافة إلى أكداس من الغيوم الرمادية اقتنصها الجبل من فضاء السهل الغربي.

كان المسير بلجب إيقاعي. كأن العسكر يقوم بعملية استعراض، بعد عودة من معركة ظافرة. نعم لشدّ

ما كانت تحدو بشائر الظفر المؤزر، وتزقزق زغاليل بهجة النصر وفرحته - مسبقاً - في جوانح كل ضابط.

توسطت العطفة؛ بهودج ناقتها المزين، الكتيبة الخامسة. وكانت كعروس تزف إلى عريسها. لقد استعدت فرحة بنت المذيب، لهذا اليوم العرمرم استعداداً كاملاً. بل فوق العادة. ألبسوها الثياب الجميلة والحلل الفاخرة الغالية الثمن. وزينوا جيدها ومعصميها بأنواع الحُلى المصنوعة من الذهب والفضة والزبرجد. كما انتقوا لها ذلولاً من خير فصائل النوق، وأكرم سلالات الهجن. قوائمها ممشوقة إلى الأعلى كسواري الأشرعة. لونها أزرق كالفولاذ المسقى. رقبتها طويلة، تتلوى كأفعى ضخمة. تنتهي برأس صغير نسبياً، مكلل بريش النعام. أما الهودج. فأثبتت على إيوانه المرايا والصفائح الملونة المشفوعة (بالبراق). وتتدلى منه حبال (البراقش والدنادش) المثبتة بالشراشيب والبسط والنمارق المصنوعة من الحرير والصوف. والموشاة بنمنمات الخرز وتخاريم الإبرة. وصار هذا الهودج مع ناقته ومركبته يتلامع بألوانه ورقوش زخارفه مثل مركب هبط من السماء، تحف به

الأمواج من رؤوس الجنود، من كل جانب. وهكذا استقرت العطفة في خدرها البهي المصان. لتطل من بين ستائر النافذة برأسها المؤطر بشملة صفراء، يهل على جموع العساكر بوجه منير ساطع كبدر ربيعي من بدور نيسان.

وكم داعبت رياح الصبا طنافس هذا الهودج، وأبراد صاحبته كأن الجبل كان يرسل بها قبلة عتاب لابنة الجيران، من أهالي حوران: ((يا ذات الخدر....! أين ذاهبة؟.... مع من ذاهبة؟....)).

على كل. ظلت العطفة تستقبل نسائم الشرق الناعمة المفعمة بلدائن أنامل شعاع شمسه اللطيفة، في هذا الصباح المجيد. دون أن ترنو بطرفها إلى هذا العالم من حولها، المتأجج بالحديد والنار. الذي لم يشعر بها. وبما تشيعه من أنس وجمال وبهاء! بل استبدل معطيات مباهرها، بإثارة القتال وسفك الدماء، لتزرب على إيقاع نغمات صوت (هيهياتها) الدافئ الرخيم:

- ((شوباش لعساكر السلطان. ألف شوباش.....)).

- ((شوباش لحملة الباشا والي دمشق.... النصر لكم يا عسكر بني عثمان.....)).

- ((.... النصر لكم يا كتائب الباشا اثبتوا في المعركة فالزلفى لكم....))

/ وتلقينات أخرى تحت التجريب والتدريب.

استمر تقدم الحملة على ترجيع صوت العطفة وضرب الطبول والصنوج، نحو الشرق دون مبالاة لما تراكم على تضاريسه من هضاب وقلل وأكمات، قد تكدست فوق بعضها أكداساً عالية....

في فسحة سهلة منبسطة من الأرض، ذات لونٍ أحمر قانٍ. توقفت الحملة العتيدة عن السير. بعد أن أطلق الباشا - قائدها - إيعازه:

- بكباشي أوغلين إلى الاستراحة.

وهكذا كان.

فتخفف الجنود من أسلحتهم وبعض ألبستهم. كما أن الخيل أراحت أجسادها العرقة الدبقة. وبرّزت الروث. وفرزت البول براحة تامة ؛ وإن شاعت روائحها الواخزة في

المكان. على كلٍّ. الباشـــا نفســه تجاوز هذا الأم-ر. وسأل مساعده عن أمر آخر يخزه أكثر:

- ما اســم هذه البلدة التي نعســكر في خراجها، يا أوغلين؟

- سـيدي الوالي. قائد ربيئة الاسـتطلاع اليوزباشــي (كوران) أَعلمني أن اسمها (امسيكي).

- أو و.....وه-....! لقد ســفك من دم جنودنا الشــيء الكثير الكثير، في هذه البلدة، يا أوغلين..../ ثم نفخ آهة أخرى:

- أجل جرى ذلك حين شــرع أهل الجبل في قتل عساكرنا بقيادة (ساري عسكر)..../ استأنف أيضاً:

- مسـكين هذا ال- (ســاري عسـكر). لقد ســحق هو وحملته.....أ.... أ... فطنتُ. لم ينقل لنا اليوزباشـي كوران أية معلومات عن العدو للآن.... هييه....! / أخذ نفســاً طويلاً ملأبه صــدره العارم، وهو واقف على رابية ناهضـــة مع معاونه البكباشـــي أوغلين، من أرض الاستراحة في خراج

بلدة امسيكي الشهيرة. ثم رسم بشفتيه ابتسامة بائسة. كانت كنشاز غير لائق بوجهه الطافح وهيئته الوقورة:

- إنني أخشـــى من كمائن أهل الجبل الذين برعوا فيها...../ لهث وتابع:

- للآن، لم تصـــلنا أية أنباء.... قلبي صـــار يدق، لا أعرف لماذا؟....

هل هزائم معركة (ساري عسكر) الخاسرة، في هذه البلدة، قد انتقلت إليه بالعدوى؟

- سيدي الباشا. أعهد فيك العزيمة والتفاؤل....

قاطعه الباشا:

- لا أدري لِمَ تبدلت الأفكار لدي؟

- عطوفة الوالي القائد العام...

- آه...! يا أوغلين. لا يهنأ عيشـــي طالما هذا الشـــرق يقف أمامنا ؛ لا بتلك الذرا والقمم العظيمة. بل بســـكانه الأشد صلابة من صخوره.

- اطمئن سيد...

- هم السـد المنيع الذي يشـكله أمامنا هذا الشـرق لا جبله المترامي الأطراف..

ثم نظر صـوب الشـرق. كانت الأدغال البعيدة في السفوح المتدرجة نحو الغرب, قد اكتست دثاراً ذهبياً من الشمس, لا أروع ولا أبهى.

وعلى الرغم من (بانوراما) الطبيعة. استأنف الباشا:

- يا أوغلين لا أثر (لهم). لا أثر..... أوف....! هؤلاء القوم هل ينامون نهاراً, ويستيقظون ليلاً...؟!

****

الفصل العاشر

المعركة

لم تبعد قرية (قراصـــــة), الواقعة تحت أقدام ســــفح الجبل الشـرقي عن بلدة (امسـيكي), سـوى خمسـة عشـر كيلومتراً.

بلـدة (امســـيكي) في الغرب, هـذه البلـدة التي حوم الموت في أراضـــيها بكثافة. حتى امتلأت بجثث القتلى، عندما اندحرت حملة (ساري عسكر), قبل عدة سنوات.

وتشـــهد اليوم تحت سـمائها الرمادية الملفعة بذراري ضباب رقيق, أضفى عليها وهجاً ثانياً من الطبيعة ؛ تشهد حركة دائبة:

جلبة بســـاطير, لغط جنود. حرتقة ســـلاح. دربكة عربات.وتململ بغال بقلق مما تجره بأكتافها. أجل منذ

أن بنيت هذه القرية في قديم الزمان, لم تشهد مثل هذا الذي يحدث فيها اليوم, حتى غدت في دويها وضـــجيجها, كبؤرة كبيرة لحـدث فلكي عظيم يجري على ســـطح الأرض.

إذن, بلدة (امسيكي) تضج, في الغرب, بشدة حركات-ها. وق-رية (قراصـــة) في الشـــرق,منها. تعتز باســـمها كقراصــــة, فهي تقرص وتدمي,بما يحيطها من وعور وصـــخور. بحكم موقعها, كمقدمة لرقعة اللجاة المعروفة بصـــعوبة مســـالكها وكثرة جلاميدها, في أطراف الجبل الشمالية الغربية.

لـذا هي القريـة المرشـــحـة الأولى, من بين القرى الواقعة, في هذا اللحف, ليقع عليها اختيار أهل الجبل. في أن تكون نقطة الصـدام الأولى مع طلائع الحملة العثمانية القادمة عليهم. بقيادة والي دمشق (محمد باشا القبرصي). ولتكن هذه ال- (القراصــــة) في هذه الأيام مقفلة الأبواب, خاوية كقاع صفصف - كما أمر قائد مقاتلي الجبل الشيخ جاد الكريم:

- ((فليهجرها سكانها في الحال, لتبقى خالية. لا تلتقط الآذان في بيوتها وأزقتها حركة, أو نأمة....)) - طبعاً - باستثناء ما ستثرثره الطيور المتمردة على رؤوس الأكمات والأجمات, من زقزقة وتغريد, وهي تنشد عالمها الخاص, غير هذا العالم المنكود.

ثم يتابع القائد الشيخ:

- ((نعم فراغ قرية قراصة, بهذا الشكل الكامل, يساعد على القيام بالضربة السريعة الخاطفة, والقاصمة, التي ستحل بالحملة المهاجمة. ستحل عليها صاعقة كمفاجأة أولى...)).

وبعد استقرار الوضع، على هذه الصورة، في قراصة. فليركن القائد الشيخ إلى وضع تقدم الحملة نحوها.

وفي هدأة من السماء. راحت الشمس تصب لهيبها وكان قد تصرم الضحى.

في هذا الوقت. كان ثمة فارس يهذب على حصانه ذي الذيل المهلوب.

- ماذا يا عامر الغانم؟ / ســـأل الشـــيخ الهمام عامر الغانم. وكان قد توجس خفية. ثم أوضح متابعاً:

- ما هي معلومات فصيلة الاستطلاع؟

وتحـدر على ظهر جواده (كحيلان) نحو الغرب. والريح الشديدة تدفع لحيته الغزيرة إلى الخلف.

مســح الفارس عامر الغانم بكمه وجهه الذي أصــبح بلون الأرجوان من شــدة العرق والحر. وســار مع قائده جنباً إلى جنب:

- يا شــيخي التجأ ســكان قراصــة إلى إخوانهم، في مرتفعات الجبل الشــرقية. وأضــحت الطريق خالية حتى بلدة بصـــر الحرير في شـــرقي حوران، مما يلي حدود الجبل.

- أهذا صحيح؟

- لعنة الله على الكاذب...../ ثم ســكت المقاتل عامر الغانم، ليسترد شيئاً من هواء شهيقه. وصـعّد نظرة نحو السماء، وهو على ظهر جواده، حيث كانت غيوم بيضـاء تعوم كطيور البجع، وأطـال صـــمتـه، إلى حـد الرعـب. وضعه المريع جعل الشيخ جاد الكريم يفور دمه:

- أي...! ما بالك، يا رجل؟

- هــا... ه... أ... وابن الـحري-ري، ش-يخ بلــدة (ناحتة). قال لي إن حملة ج-رارة لا تحصــــى. بعدد ها وعتادها. متجهة صــوب جبلكم مروراً بقرية (قراصــة). و....

قاطعة الشــيخ جاد الكريم، وقد اخشــوشــن صــوته اهتياجاً:

- إذن، كما ئننا تكون لائذة في قرية قراصـة...../ نفخ فوق (كحيلان)، وتاب-ع:

- بلى. في اعتمادنا قرية قراصة للكمائن حكمة سديدة يا عامر. فهي بوابة جبلنا، وترعة (لجاتنا).... / ثم سكت.

- أي نعم. هذا صح، يا شيخي.

- إييه...! يا عامر الغانم. الله يكون بعوننا على أولئك المعتدين. لقد باعوا أنفســهم للشــياطين، وقدموا لمحاربة قوم مسالمين.....

ثم توقف الفارسان؛

- ثمة فارس يهذب مسرعاً نحونا يا عامر.

- هذا فرحان الساري. إن لم تخني ذاكرتي أو عيني. وهو من فصيلة الاستطلاع.

ثم؛

- ما وراءك يا فرحان؟

- شيخي جاد الكريم. الحملة تتمركز الآن في بلدة (امسيكي)، غربي قرية قراصة.

- هل احتلت الطريق؟

- بل كل الأراضي التابعة ل- (امسيكي).

لهث الشيخ جاد الكريم. وقد عادت به الذاكرة إلى حرب (ساري عسكر) في معركة هذه البلدة. قبل ست سنوات....((آ... ه....! يا امسيكي كم طن الذباب في هوائك الزنخ. وفوق ترابك الدبق الذي عجن بدم القتلى والجرحى من (العسكر)....))؟

هز برأسه، وتابع بلفظ مسموع على آذان مرافقيه:

- ستعيد قريباً جداً قرية قراصة، بعون الله تعالى نصرنا نفسه في (امسيكي) ونصرنا في اللجاة على إبراهيم.....

قاطعه عامر الغانم:

- اللجاة! اللجاة، يا هذه البقعة من أرض الجبل التي غيرت لونها الأخضـــر، لون الطحالب، باللون الأحمر القاني.... آ... ه! يا شيخي جاد الكريم، لو أن هذه الصخور تنطق كما ينطق بنو البشـــر، لتكلمت عن أفعالك، وأفعال أمثالك، من أبطال الجبل الصناديد..... /

- هِئ.... هِئ.../ جلجل ضـــحكة قوية الشـــيخ جاد الكريم، وهو يترجل عن صـــهوة (كحيلان)، ليشـــد حزام مرشـــحته أكثر. ثم يتابع الســـير, جمجم: ((العناية من الله تعالى, أولاً وأخراً.... فلا نصـــر إلا من لدنه الكريم...))) و((إن ينصـــركم الله فلا غ-الب لـك-م)). و((نح-ن في حراس-ة الذي لا تنام عينه)).

ثم اســـتدرك في نفســـه: ((المهم, في الأمر, ألا نكون معتدين؛... وهذا سـبب انتصـاراتنا السـابقة..)).../ تنهد ونادى مرافقيه؛

- ليكن المسير للمقاتلين هذه الليلة. والمبيت في خراج قراصة. نستغور مغاورها وكهوفها. ونلطو في أكناف

أرجامها.... وكل صـــخرة. وكل جدار وكل شـــجرة منطلق لمقاتل من شجعاننا البواسل....)).

وسار, وسيفه المستل يلمع فوق رأسه, كبريق مرآة.

****

قبل بجة الفجر. وتحت ســـماء كحلية كزرقة الفولاذ, قد اســـتحالت ســـقفاً مطلقاً مرصـــعاً بالكواكب والنجوم. اشــتعلت بلدة (امســيكي) بلجب الجن-ود. واختلطت فيها روائح بول الخيول بصـــنان الروث والبراز... ثم طغى عليها ما حملته الريح إلى الآذان، من أصـــوات الجنود والضـــباط، وبربرة ســـدنة المدافع، وصـــهيل الخيول، ودربكة عربات البغال....

- ((ولتكن حرباً شـــعواء ســـاحقة ماحقة. لا تبقي ولا تذر....))!

ثم إيعاز القائد، بصـــوت عظيم كالزئير: ((عســـكر اصطفاف)).

و: ((نحو الشرقِ سر)).

وزعق صـــوت بوق النفير.كانت بعض الغربان قد أزعجت في مجاثمها. فطارت مســرعة من بطون الربى والشــعاب وحلقت بعيداً. وعلى الرغم من ذلك، تقدمت الطوابير المجلجلـة بوقع أقـدام تجرجر على أرض صـخرية صـلدة قاسـية الأديم. تعصـى المعاول وأدوات الحفر، لتكون فيها اسـتحكامات وخنـادق يخلد داخلها الجنود كمـا تخلـد السـنـاجـب والأرانـب البريـة في جحورها....

إذن فلنتابع قطعات الحملة مسـيرها، نحو الشــرق، الذي كان قد امتلأ بالنور حين بزغ شـعاع الشـمس من خلف الجبل. وكأن جاء صـبـاح هذا النهار مبكراً في شروقه، الذي امتد بضيائه المذهب على البطاح والوهاد، والسفوح والهضاب في كل الجهات.

وهكذا بدأ مهرجان الكون. وصـــارت الأرض كلها على شاكلة واحدة.

تتابعت الكتائب وتلاحقت. وتلاسـن الجنود كثيراً فيما بينهم:

- هيا اسرع، يا ((كجك)).

- سدّ بوزك، يا لعين.

- ارفع بارودتك إلى الأعلى، يا (زربول).

-......

كانت الكتيبة الخامســـة المميزة، بقوة عناصــــر ها وســلاحها - كما ســبق - تتوســط الكتائب العشــر. وكان يتوســـطها، جمل من فصــــيلة الذلول. أو بالأحرى، ناقة هجان. تحمل على هرم سنامها السمين مقصورة الهودج اللافت للنظر.

بعد ســاعتين من الســير العســكري المنتظم. انطلق إيعاز شـهير صـارم، عن (لسـان الباشـا - القائد): ((كتائب انتشـــار)). فانتشــرت الكتائب، في الحال، تحت إمرة الضــباط قادة الســرايا والأرعال. الذين كانوا قد شــمخوا بأنوفهم، متباهين بشـــارات رتبهم، مثل كراريز قطعان الغنم.

طبعاً. جرى هذا الانتشـــار الواســـع، وفق التعليمات العليا، التي ص-درت. مع أخذ الحيطة والحذر. وترقب كل حركة غريبة يشتبه بها.

قرية قراصة، من جهتها، هذا الفخ الكبير المنصوب بمساحات أراضيها الوعرة، وصخورها الصلاد، كانت ساجية تحـت خدر حرارة الضحى. لم تصدر عنها نأمة ما. الحملة العثمانية ما زالت تتابع سير الهوينا في حركة انتشارها. وتخلصت بسهولة من تلك المستنقعات الضحلة. وقيعان الطين الزلقة، التي واجهتها.

ظل الأمر مجهولاً، في إفاضة المياه على هذه الأراضي. وبخاصة أن دوريات الاستطلاع المتقدمة. لم تنقل، للآن، أية معلومات عن (العدو).

- ما الرأي عندك، يابكباشي أوغلين؟

- مولاي الباشا، نستمر بتقدمنا. والسير البطيء هو الأسلم.

- أجل. أجل. ولتكن سرعة تحركنا كسرعة سلحفاة....هيء هيء..../ وضحك الباشا.

- مولاي. نحن ننفذ الدروس في التدريب الحربي، وفق تعليمات أكاديمية بحتة.

- على كـل حــال في الحركــة البطيئــة الأمــان والاستحواذ الدائم على القوة لدى عناصرنا.

- و.......

ولكن من جهة أخرى؛

هـذا الأمر النظري. لم يصــــدقْ. على الواقع. هـذه المرة. فحملة (الباشــا القبرصـــي) المطلع على النظريات الأكاديمية العســـكرية. إذ ما أن حاولت الكتائب تكمل اجتياز (خراج) قرية قراصـــة الصـــعب. حتى حلت بها المفاجأة المذهلة. لقد هبّ مقاتلو (الصــف الأول) من أهل الجبـل، بوجـه طلائع الحملـة والأجنحـة الجـانبيـة. هبوا كـالعـاصـــفـة الهوجـاء، من كـل مكـان. من أين نبعـت الفرســـان؟ من أين نبعت الرجـالـة؟ وتعـالـت الزغـاريـد والهتافات:

- ((عليهم النشـــامى.... يالحماة الديار... والذود عن الذمار...))!

- ((يــالصـــون العيــال!... نـحـن فـداء الـعـرض والأرض.))!...

وتناخى المقاتلون: وتفازعوا من خلف كل جدار. من (لطوة) كل صـــخرة. من فم كل كهف وفوهة غار....نعم انطلق أولئـك المغـاوير اللابـدون في كمـائنهم الأولى. واشـتجر صـوت الرصـاص بصـليل السـيوف وصـهيل الخيول. وتـداخلـت، من الخلف، مع لعلعـة (هيهيـات) النســوة وزغاريدهن و(شـــو باشـــاتهن لرجالهن الأباة الأبرار وكانت كل واحدة منهن (عطفة). ولكن كان الأهم ذاك الصــوت الجهير الذي تعالى بهدير كقصــف الرعد. عند ما صـــدر عن القائد البطل الشـــيخ جاد الكريم. الذي أبى إلا أن يخوض المعركـة مع الطلائع الأولى، من المقاتلين لصـــد الســـرايا العثمانية، التي كانت قد نفرت شرقاً، خارج حدود قراصة:

- ((اليوم يومكم يـا أهـل الجبـل... اليوم يومكم يـا صـــناديد.... أنتم للحملة الباغية، يا إخوتي.... أنتم لها أيها الشجعان...))!.

وظل يرغو ويزبد كالجمل الهائج، وهو يليح بســـيفه الصـــمصـــام. ويرمح بحصـــانـه (كحيلان) مزمجراً: ((هييه...))!

في هذا الوقت، كانت الكتائب العشر، قد توزعت في (خراج) قراصة. وفق انتشار عسكري معروف. بطاريات المدافع تمركزت في مرابضها الخلفية، لتطلق قنابلها الهائلة المرعبة إلى الأمام، ولتحمي الجنود المتقدمين نحو الشرق. بموجب خطة هجومية سديدة. رسمت من قبل (أركان) الحملة. ولكن اليوزباشي (إكمان) كان يريد العجلة، ليربح النصر مبكراً:

- هل الجنود يغوصون في الوحل؟

رد عليه اليوزباشي كوران.

- المهم السير مستمر. ولا تنسَ غطاء المدفعية لتقدمهم. / نفخ اليوزباشي (إكمان) هواء زفيره بوحشية. وكأن اسودت الدنيا في عينيه:

- أرى بمنظاري الكبير (الدربيل) - أن قصف قنابلنا، لا تدك في ذاك الشرق الوعر سوى أرجام الحجارة، وتحدث الحفر العميقة فيها.

أجابه كوران بتؤدة: لا تكن لجوجاً يا إكمان. المهم حماية الزحف.

في الحقيقة، كانت تلك (البومبات) الفظيعة، قد أحالت في ظهر هذا اليوم الأرض في الشــرق من قرية قراصــة جحيماً أسـود. فقد غطت سـحب الدخان الفضــاء بالكامل. وكاد ينقلب النهار ليلاً، لولا شــهب القذائف المتلاحقة هنا وهناك. ولولا نيران الحرائق المتصـــاعد في الجو التي تلألأت أعمدتها بألوان طيوفها الشتى.

ولكن، على الرغم من كل ذلك. ظل الهجوم المضـــاد من مقاتلي أهل الجبل متواصـــلاً، وفق خطة مقاومتهم المرســومة بدقة. وهكذا اســتمرت المصـــادمات الأولى متواصـــلة في التواثب والاختلاط. لتوقيف زحف كتائب الحملة. وإبطال مفعول مدافعها.

واحتدم الصـــدام أكثر بعد امتصـــاص حيوية تقدم الحملة. واشـــتد أوار القتال لتوقفها. وكاد رزيم القنابل يصـــم الآذان. إضـــافة إلى أزير الرصـــاص، وصـــهيل الخيول، وحرتقةٍ الســلاح، والهياج الناشــب في كل مكان وعيداً وزعيقاً وصياحاً. إنه ليوم مشهود، من أيام الحشر، في قراصة!

الشـــيخ جاد الكريم، كالعادة، من الجناح الأيمن، ما زال صوته يزأر، لبث روح المعنوية في نفوس المقاتلين. والصمود والثبات، في هذه المواجهة الشرسة:

((الشجاعة في الحرب صبر ساعة..... صبر ساعة فقط...... يا جماعة)).

الأمر الذي زاد في حماســـة المقاتلين وحميتهم. وإن ظلت المادفع تدوي والرصـــاص يزعق فوق الرؤوس. فتناخى فرسان أهل الجبل نائرين فوق صهوات أفراسهم، ومن خلفهم الرجالة ؛ يفتكون بالجنود. وترددت أصــوات عديدة:

- لعينيك يا شيخنا جاد الكريم....

- وأنا أخو ميثاء....

- هأنذا اصطاد ضابطاً برتبة يوزباشي.

- هأنذا أكسب حصاناً.

ثم ترنحت جثة عن ظهر جواد. وبانت قسمات الوجه على نحو فظيع. لشد ما اختضّ الفارس المقاتل فرحاً،

حين ترك الضـــابط المدمى يلعق التراب، ويحدث حفرة بأطرافه.

وصوت آخر: ((عليه اللعنة، غنمت بارودته)).

ويتخلى الجندي المرمى أرضاً عن سلاحه ضرورة. وهو ينافح الحياة جراء جرحه البليغ. بعد أن شجت رأسه عصا غليظة مفلطحة.

ثم صـــوت من نوع آخر دوى بعيداً: ((أف.....! يا للانفجار العظيم هناك))!

- هذا حريق هائل، يا حمزة!

- نعم، يا فرحان، انظر ذؤابات الشـــرر كيف تتطاير في الفضاء.

- إنه فعل قنابل المدافع التي سقطت في ذاك المكان.

- نيرانها تأكل الأخضر واليابس دون كلل.

- هئ.... لا يوجد غير الوعر والصخر.

ثم استوقف فرحان الساري نفسه نفراً من المقاتلين. كانوا يجرون مدفعاً، فقد عربته:

- لا حاجة لنابه يا رجال. عطّلوا بيت النار فيه واتركوه في أرضه.

ابتسم أحد المقاتلين:

- من الذي يلقي إيعازه علينا؟

رد مقاتل آخر:

- هل يخفى القمر؟ هذا فرحان الساري....

- هئ..../ هئ..../ وبعد الضحك:

- التحقوا بكوكبتنا، يا رجالة.

على كل، استمر المقاتلون من أهل الجبل، في بطولاتهم الفردية والجماعية لدحر الحملة. أو لوقف زحفها على الأقل، في هذه الجولة الأولى من القـ-تال.

ولكن المعادلة العددية الصعبة، بين الفريقين المتحاربين ستكون عاملاً مرجحاً في المعركة. و هذا الأمر يصبُّ في مصلحة الحملة العثمانية. هذا إضافة إلى أن قوة (العسكر) قد ازدادت أكثر، حين أخذت (العطفة) تصدح بـ- (هيهياتها)، للضباط والجنود، وتزغرد وتحييهم من مركبة هودجها. فتقدمت الكتائب، بعد أن

امتصـــت اللطمة الأولى من المقاتلين. وشـــد الجنود أحزمتهم على أجسـامهم أكثر. وأصـلحوا بعض أسـلحتهم المعطوبة أو المعطلة. ليثابروا على القتال، والزحف.

وهكذا اشـتد لظى المعركة من جديد. وتفاءل الباشـا - القائد العام للحملة - بالنصر الوشيك، وبعد رشق القذائف، وفيض الرصــاص الذي لا يحصـــى. ولكن كان قد انـهمر كل ذلك بصــورة عشـوائية. نظراً لطبيعة أرض المعركة الجبلية الوعرة.

لهذا ظلت مقاومة أهل الجبل تصـد زحف الحملة. في هذه الأثناء، انبرى فارس مقاتل نار به فرســه، إلى داخل صـفوف الكتائب. كان السيف الوحيد كل سـلاحه، لم يغنم بعد بارودة، وإن كان محارباً قديماً. فمزقه الجنود بعنف ووحشية. وساد هرج ومرج، في ك-وكب-ة قري-ة حب-ران:

((يا للرجال النجباء! إن عطا الفياض قضـــى نحبه شهيداً، بعد أن ثوى عن حصانه بين الجنود.....)).

كذلك رصـــاصـــة ثخينة من طبنجة بعيدة أصـــابت المقاتل ســعود الراشــد، من مشــاة مقاتلي قرية المجيمر، وكسرت عظم الحوض بجسمه. وأخذ يصيح:

- النشـــامى ضـــعوني في الخلف عنـد النســوة المضمدات. آ..... ه....!

يا حسرتي لم أعد محارباً. بل رجل كسيح.

الشيخ جاد الكريم ظل متفائلاً. لم تؤثر هذه الصدمات على معنوياته، وهو المجرب في مثل هذه المعارك. المهم الآن أن يوقف زحف الحملـة، قبل أن يوقف ظلام الليـل القتال. على كل حال، دبّ المســاء تواً من جهة الشـــرق وخيم بعتمة دامســـةٍ. خلال الليل دعم مقاتليه في الجبهة الشرقية بكوكبة إسناد أخرى. وضغط بكوكبات الأجنحة على الميمنة والميسرة. واستراح الخصمان لصباح اليوم التالي ؛ تحت ضوء ضئيل من ترس القمر المحمر البازغ من خلف ((القليب)).

****

في الصـــباح، بعد أن اســـتحالت ظلال الفجر ليلكية. وقبل أن ترش الشـــمس ألوانها المذهبة، على البطـاح والصـــخور، وتتخلـل أشـــجـار العليق والزعرور والسنديان.... كانت بكرة صـافية كالبلور.لم تكف الطيور عن تغريـدهـا وترديـد أنغـامهـا المعتـادة. وفي أرض المعركة، كان المقاتلون الأش-اوس، قد ضـــيقوا الخناق على كتـائـب الحملـة من ثلاث جهـات: جنوبـاً وشـــرقـاً وشـمالاً. كما أن أشـراك كمائنهم ظلّت في أماكنها، لتهبّ كالنار، في الوقت المناسـب. ثم اشـتعلت الجبهة من جهة الشـــرق. كـان هـذا هو المطلوب. إذ كـانـت الحملـة قـد انتشرت بجبهة واسعة....

- ((أصـــبحت الحملة مطوقة، ضـــمن دائرة بيكار كبيرة، يا شيخ جاد الكريم)).

- ((المهم أن تبقى كمـائننـا في مركز هـذا البيكـار - قرية قراصة - يا شيخ صالح)).

وابتســـم الشـــيخـان الجليلان المحـاربـان القـديمـان لبعضهما بعضاً. وعندما حمي وقيد الشمس في الضحى، حميت أوار المعركة. لا شك أن منطق المعادلات العددية

ستخترم موازينه في هذه المعركة. فقد دفع الشيخ جاد الكريم هجمات متتالية للقتال.

إذ تقافز المقاتلون من كل حدب وصـوب، في سـائر أنحاء الجبهة. وتلقت مؤخر الحملة، هذه المرة، ضـربات موجعة. الأمر الذي أخّر زحفها.... ثم جرت اختـرقات أخرى فردية وجماعية، في بقية (صفوف العسكر).. فعاد وتضعضع وضع الكتائب أكثر. وكاد يفقد الاتصـال فيما بينها.

هكذا نجحت أسـاليب الأشـراك والحبائل لدى المقاتلين، في الإيقاع المؤثر الفعال بالعدو. وهي أسـاليب قتالية مشـروعة في الحروب. لذا لم ترجف ضـمائر المدافعين عن (عرضهم وأرضهم) عند أعتاب جبلهم.

فقد أحاطت كمائنهم بالحملة من كل جانب إحاطة محكمة. وكان الأكثر فتكاً الرجال الكامنون داخل قرية قراصـة. فقد هبوا هبة رجل واحد، من بين الأزقة والجدران والبيوت. ومن كل شـاهق. الكل شـاهر سـيفه. مليح رمحه. أو مسـدد بندقيته المغنومة. ثم لا ننسـى دور رجال الأهازيج الحربية (وعازفي (مجاوز) القصـب الذين

كانوا يريدون ألحانهم الحماسـية)، عند صــك الغارة وعمليات الالتحام مثل (جوفية):

تــايــه الشـــــور يــلــلــي تــحــاربــنــا

مــن حــاربــنــا يــذوق الــعــطــايــب

إضافة إلى ما كان ينطلق خلف ظهراني المقاتلين من زغاريد النسـاء اللواتي احتشـدن وراء السـواتر والآجام، لأغراض القتال:

- هيا. هيفاء، اجعلي لسانك في حلقك مثل (فرنانة).

- يا أختي نجيبة، زغردت حتى بحت حنجرتي.

- وأنت، يا صالحة، أين صوتك المرنان مثل الصنج ؟

- دون-ك يا س-لمى ((هيـه-يـاتي)). / وصـــاحت صـالح-ة (تهاهي) في (شـوبشـات) تشـعل النار في الأفئدة نخوة وحميَّة.

ثم:

- احملي قربة الماء، يا نجلاء، ثمة مقاتلون عطاش عند تلك الرجمة.

- أنا علي بزوادة ملأى بالأرغفة والأدم.

- ألأنت المرأة الفقيرة الأرملة، يا وطفاء، تأتين بزواويد الطعام؛ وقد استشهد زوجك في معركة (امسيكي). وخلف لكِ أطفالاً يتامى؟

- خذي مهمتها، أنت يا غدفاء.

- أنا عليّ بتضميد جرح ذاك المقاتل، يا علياء.

- إذن.أنا أقوم بالمهمة ....

****

على كل حال. كشفت عناصر المعركة على الملأ من رجال ونساء. ومن رايات تلوح فوق الرؤوس متعددة الألوان والأشكال، بتعدد الفصائل والكوكبات. لقد خرج مقاتلو القرى ببيارقهم الخفاقة، من مخابئهم. وانخرط الفرسان الأشداء في أتاتين المعارك. ومعامعها الطاحنة. وأي خزي سيحل بمن يجبن، أو يتقاعس في المعركة؟! وأية لعنة ستن-زل عليه. وعلى ذريته من بعده. بل سيطال هذا العار الخلف والسلف من أسرة كل من يتخاذل في الهجوم. أو يرتد إلى الوراء قليلاً. أو يطعن من

الخلف، لا في الصدر. ستفرمه فرماً ألسنة النسوة المتطوعات في المعركة.

ولهذا السبب. لم يشهد تاريخ أهل الجبل مقاتلاً هارباً في معركة قط. بل على العكس. كان كل رجل يطير شعاعاً من شدة ما تتأجج به روحه للقتال. ومن عظم ما يؤرث في نفسه من صفات الشجاعة والإقدام والبطول-ة.

إذن، المرأة عامل أساسي. بل محور رئيس ثابت في صنع الرجال المغاوي-ر. وعند أقدامها تزهق الأرواح. وتراق المهج:

- ((لحد، وأنا أخو ميثاء))!
- ((لعيني خطيبتي غزالة))!
- ((يا لعفاف هدية، زوجتي))!
- ((يا لصون ذوات العفاف - أخواتي العذارى))!

طبعاً. القتال مستمر. والمعركة على أشدها. و ((الكل ينافح من أهل الجبل عن وجوده، في عقر داره وقريته و.... /)). العدو ما زال متفائلاً بالنصر، وقد ازداد شراسة بخاصة، بعد أن ازدادت العطفة في

هيهياتها وزغاريدها للجنود والضباط الذين استبسلوا عند سـماع الصـوت النسـوي الوحيد لديهم. وقاوموا غارات الفرسان حتى الموت.

وعندما تصدرت الشمس على ((كرسي الفلك)). بل حين مالت عن تلك (القبة) انطلقت بشارة من الشيخ جاد الكريم:

((لقد مالت كفة ميزان المعركة لمصلحتنا عند ميلان الشمس، أيها المقاتلون الأشاوس....))

ثم جأر هذا الهمام، بعد أن استراح بنفس طويل: ((شدوا الهمم والعزائم أكثر.... العدو تضعضعت قواته واختل نظامه تحت ضرباتكم السديدة.... أصبح محاصراً....)).

ثم صاح: ((لقد حاقت به (الحاقة)..... فاصمدوا واصبروا.....)).

نعم. لقد بدأت عمليات (فرار)، تحدث في صفوف العدو، من الخلف والجانبين.. وهكذا عاد و زعق الشيخ

جـاد الكريم: ((.... اخلوا جهـة الغرب تمـامـاً من الجبهة، يا أهل الجبل.....)).

ثم اسـتراح خاطره، ومسـح رأسـه الحليق بمنديل قماش، من العرق. وأرجع عمامته عليه. رزم كالرعد الهادر:(بعد أن اسـتشـرف المعركة من قلّة عالية) أيها المقاتلون البواسل، عليكم بالالتحام أكثر.

وكرر:

- ((بالالتحام نشل حركة العدو ونبطل مفعول سلاحه الناري.....))

ثم صوت آخر من مساعده الشيخ صالح الداود:

- ((أنتم لها يا أهل الجبل.... وهذه عاداتكم))!

وهكذا نشـبت، في أماكن عدة، من أرض القتال، معارك بالأيدي إضـافة إلى السـلاح الأبيض. وزادت فعالية السيوف والرماح والهراوات والعصـي، والبلطات والحجارة، حتى الأسـنان والأظافر. كلها أعطت أكلهـا. ومن ذا الذي يصـمد بوجه رجال الجبل، ويقف أمامهم، في قتال الالتحام هذا ؟ وبخاصة ضرب السيف، ورمي

الرمح، وطعن المزراق. وقد تمرســـوا على ذلـك، وتوارثوه كابراً عن كابر. منذ مئات السنين.

لقد تـدحرجـت رؤوس كثيرة، على أديم المعركـة وتعفرت بالتراب. وتكرر فرار الجنود والضباط، (فرادي وجماعات)....

ثم وصـــل خبر مؤكد وعم معظم المقاتلين: ((الجيش بدأ يتقهقر)) عاد وزأر الشيخ جاد الكريم من ذروة ربوته: ((احرصـــوا على فتح فرجــة من الغرب، في الطوق المض-روب حول الحملة)). / وتاب-ع بعد هني-هة: ((تقضـــي الشـــهامة أن نفســـح المجال لمن يريد النجاة بروحه)).

((الحكمة الشـريفة تقضـي أن نجعل للهارب مخرجاً. ولا تتم الإبادة التامة. ولا يأخذ البطش مداه في الشدة، ولا يغزر سفك الدماء.... / لهث وأخذ نفساً:

((يجب أن نتســـامح مع الذين أفلحوا بالهرب وولوا الأدبار. أو استسلموا أسرى.... عاملوهم بالحسنى، على أنهم كائنات بشرية. طبقوا تعليمات شيخنا المرحوم

(الهجري)، في آداب الحروب، وحقوق الإنسان.... أح.... أح...)). وهنا أوقفته سلعة عن الكلام ثم استأنف:

((..... التي طبقها ممارسة عملية في حروبنا مع إبراهيم باشا وهي:

- إياكم الطعن من الخلف.
- اتركوا المنهزم ينجو بنفسه.
- إياكم قتل من ألقى سلاحه، ورفع يديه إلى الأعلى.... فقتله نذالة.
- عاملوا الأسرى كضيوف.
- و......

أجل. كانت قد خمدت بعض المناطق التي كانت مشتعلة بنيران المدافع والرصاص. وتتالت خيانات بضع فصائل من كتائب الحملة. وعمليات الهرب، وعصيان الأوامر (العسكرية - الميدانية). وكأن أصبحت المعركة تدار دون قيادة موحدة من جانب الجيش العثماني. على الرغم من مثابرة الكتيبة الخامسة. - كتيبة محفل العطفة - في نشاطها القتالي.

وبالمقابل. ظل هدير الفرســـان من مقاتلي أهل الجبل يدوي، وهم يهللون ويكبرون: ((الله أكبر.... الله أكبر..... الله على من اعتدى وتجبر)).

وتجريدات عديدة من كوكباتهم اخترقت (صـــفوف العسـكر). ومزقت أرتاله وأضـعفت معنوياته. بل شـلت حركته.

وعمليات اقتحام والتفاف أخرى. شتّتَتْ شمل الكتائب وقطعت الاتصال فيما بينها.

وكأن امتلأ الجو صــيحات مرعبة ـ كما امتلأ بغبار النقع ـ صـدرت عن الفرسـان الغطارف المنبطحين على ظهور خيولهم، في تعقـب الجنود، وحز الأعنـاق من التراقي:

ـ أبا حسن نايف، جميل منك أن تصيب طريدة كبيرة كبر الضبع!

ـ اضبط أبا عساف هدفك جيداً بالبارودة.....

ـ ((طاخ..... طاخ)).... / ثم صـــاح أبو عســـاف كالمخبول:

ـ ها هو ذا الفارس الجندي قد تجندل عن فرسه.....

راح الجندي يتخبط بيديه، ويتلوى. والدم يبقبق من فمه. المسكين وضعه يثير الغثيان، بل الحزن. يشعر برغبة فظيعة أن يقضي عليه. وثمة طلقة ثانية طخت في الحال. لبت طلبه.

ورصاصة أخرى اخترقت سمانة ساق جندي آخر. وأطاحت به أرضاً. بانت ساقاه المشعرتان، من سرواله الممزق. خزره أبو عساف بعينيه. كشر الجندي الجريح عن أسنانه البيض: ((أعطني شربة ماء)).

تمتم أبو عساف في نفسه: ((أوا.... ه! المسكين يتكلم العربية))!

تأمله: ((تبدو عليه سيما العروبة حقيقة. إنه أحد (عرب الإجبارية) في الجيش العثماني)). ثم ناوله مطرة مائه، وشدّه من رسغ يده اليمنى وخاطبه:

((جدير بك أن تعلن عن توبتك، في هذه الحرب الطاغية....على كل حال اطمئن سأعيدك إلى زوجتك، وأولادك....))

في الحقيقة كان مرأى هذا الجريح يرثى له. بعد أن شرب، سرت في جسده المنهار قشعريرة ثم استحالت إلى رعدة باردة وراح ينتظر موته بصـــبر متعاظم. بعد قليل نطق:

- خذ سلاحي أيها الفارس. أنت أولى به من.....

- قلت لك اعلن توبتك أو شهاد...

ألقى الجندي نظرة حوله على نحوٍ بائس. ثم انكفأ وجهه المزرق على صدره بعنقٍ رخوة. تركه أبو عساف. وإذ بجندي آخر تائه:

- ((ارفع يديك وارم ســـلاحك. وإلا فتحت ثقباً في جسدك)).

وكاد يهوي عل الجندي المتهالك بأخمص البارودة. رفع الجندي يديه مستسلماً. جرده أبو عساف من سلاحه. ومضى به مخفوراً. ولكن عاد وأطلق سبيله بعد أن اتجه به نحو الغرب.

****

لقد قوي بأس المقاتلين في عصـــر اليوم الثاني من المعركة. وبخاصـــة بعد أن دعمتهم كوكبات المســـاندة الجديدة، ليتدخل فرسانها المعركة بحيوية أقوياء أشداء.

والجيش العثماني تابع تقهقره. وانكفأت بقية كتائبه نحو الغرب. بعد أن ســـدت المنافذ من جهات الجنوب والشـــرق والشـــمال بوجه قطعاته، لتندحر نحو الفرجة (الإنســـانية) المفتوحة. ولينفذ منها كل من حل فيه الذعر والهل-ع.

وهكذا يمم العشـــرات العشـــرات من الجنود. يمموا ســـمتهم نحو الشـــمس الغاربة. لا يلوون على شـــيء. لقد عانوا كثيراً من نقص في الخيالة، ثم تتالت عليهم غارات عديدة على الجناحين والمقدمة.... وها هي ذي فصـــيلة شبه كاملة من الكتيبة التاسعة. جفلت بخيولها إلى الشرق واســـتســـلمت بكامل عددها وعتادها ((ولِمَ لا ؟ فالروح غالية، والحياة عزيزة)). وليسلموا خيولهم وعتادهم وكل ما لديهم. ولو تحولوا فيما بعد إلى شـراذم من الشـحاذين. لهذا أخلوا ساح المعركة. وأخذوا ينهبون الأرض مشياً،

وروائح أقدامهم النتنة, التي تيبست في بساطيرهم، تلاحقهم في كل مكان....

ثم حدثت في الجهة الشمالية، من المعركة، نخوة عارمة. وامتلأ الجو بها صياحاً وهياجاً.

- ((ولنصك الغارة الأخيرة، كطلقة رصاصة الرحمة)).

- ((يالغيرة الدين والعرض))!.

كان الشيخ القائد جاد الكريم، في مقدمة هذه الغارة المميزة في المعركة. وخلفه المقاتلون، فرساناً ومشاة. والسيوف القراضبة بأيديهم لفري الرقاب على الأكتاف، لمن لا يريد النجاة بروحه. وقف الشيخ جاد الكريم على ذروة وصاح بصوته الجهوري ملوحاً بعمامته البيضاء: ((عليهم النشامى)). وانطلقت الغارة، كصاعقة ضربت الأرض من علياء السماء.

في أثناء هذا الفتك المريع كان ثمة لغط:

- ((انبطح أرضاً حتى لا تخترمك رصاصة، يا أحمد، وإلا سكنت الآخرة مبكراً)).

- ((أواه....! كيف فقدت أنفك، يا رجل ؟)).

- ((أصـابته شـظية معادية.... هئ.... هئ)) / ضـحك الرجل المقاتل، وتابع:

- ((إن لقـاء الموت لم يكن عنـدي أمراً هينـاً.... على كـل حـال أريـد أن يرحمني الله تعـالى. ويكتـب لروحي الراحة، في الجنة)).

- ((أشـــير عليك أن تعود إلى الخلف. حيث النســـاء المضّمدات ـ المشفى الميداني.....)).

- ((لقد ضـــمدته، بنفســـي، وصـــرت أتنفس من فمي لبضــــع ســـاعات. والآن حالة جرحي مريحة والحمد لله تعالى....)).

ثم انخطف هذا الرجل مبتعداً، نحو (العسكر) إذ التقى فارساً معاديا تائهاً:

- ((هييه...؟ يا أنت... يا... ترجل وارم ســـلاحك. ألســـت قائد الكتيبة المحاربة، أم لا؟)) و: (طاخ). ترنح الحصـــان الأدهم، بفعل طلقة ســـديدة من طبنجة. وأطاح بفارســـه بعيداً. الأمر الذي جعل هذا الضـــابط المنكوب بفرسه أن

يلبي أمر المقاتل. كز على أسـنانه بوحشـية. ورمى سـلاحه بالكامل. وأخذ ذهنه بسـرعة لا تصـدق في ((قضية مصير حياته)). بدأ ين-زع بذلته العسكرية، قبل أن يرفع يديه إلى الأعلى. حدجه المقاتل المجهول بنظرة جادة:

- ((لا تن-زع البستك . بل انزع الأوسمة والشارات فقط. واتجـه نحو الغرب. وكن على رأس فصـيلـة من الهاربين، كقائد لهم، أيها الضابط المنكود)).

غير أن هذا الضـابط المسـكين، عاد وكشـف للمقاتل عن ثقب معصوب في عضده اليمنى ما زال ين-زف.

- ((لا بأس)). وكرر له الإشـارة نحو الغرب. طبعاً في مثل هذه اللحظات الرهيبة، يفارق الرشـد صـاحبه. فيمّم الضـابط جهة الشـرق. فلحق به المقاتل وأدار وجهه نحو الشمس الغاربة: ((من هنا.... وإلا))، أطلق الضـابط صـوتاً مرعوباً ((عرب شـجعان)). ثم أخذه إعياء شـديد، فما عتم أن ارتمى على الأرض وأطبق شـفتيه. بل فغر فاهه عن أسنان بيض وخمد.

****

وفي مكان آخر من الجبهة:

- ((عافاك الله يا محمود الغانم. سـيفك أبرى من خنجر مجدلاني، في قطع الهامات))!

- ((يا لعينيك يا أخي! قتلت خمسة جنود حتى الآن. والحبل على الجرار....)).

وصوت آخر:

- ((من هو ذاك الفارس الضرغام الذي أطلق سراح أسيره)) ؟

- ((هأنذا فارس المسعود، يا نايف..)) تنهد فارس المسعود وتابع:

- ((ماذا عساي فاعلاً به، يا نايف))؟

- ((حماك الله يا فارس.... يا رجل ما زلت حياً، بعد كل مغامراتك؟))

- ((العمر من الباري جلّ وعلا....)) وقطع المقاتل كلامه ليهجم بجواده مرة ثانية على ذاك اليوزباشي العنيد الذي ما زال مصمماً على القتال:

- ((اسلم بروحك أيها الضابط)). ثم هوى عليه بأخمص البارودة. لا يريد أن يقتله. بل يأخذه أسيراً. غير أن هذا اليوزباشي أبت عليه عسكريته أن يستسلم بسهولة. فسدد بندقيته وأطلق النار:

((خذ منيتك من يد اليوزباشي كوران)). وتلاشى صوته مع صوت رصاصته، التي أردت الفارس قتيلاً.

هذا الحدث كان على مرأى بعيد نسبياً، من الشيخ جاد الكريم. صعق لما شاهد المقاتل يهوي على الأرض وتعود فرسه الحجلاء طلقاً.

صاح برجاله:

- ((لقد بلغ عدد الشهداء عشرين باسلاً. وهذا عدد كبير بالنسبة لنا نحن أهل الجبل...))

- ((لا حرب بلا خسائر وشهداء يا شيخنا)).

- ((صدقت يا أبا يوسف)).

ثم التفت بعيداً حيث العراك والغبار: ((لله درهم ثلاثة فرسان من مقاتلي قرية عتيل يسوقون أمامهم رعيلاً من

الجنود الأسرى)). ثم شد عنان فرسه كحيلان، ليعلك شكيمته في فمه. استأنف:

- ((علينا بجثان الشهيد، وتلاوة صلاة (الشهيد) على روحه الطاهرة. والمتابعة....)).

ولكن الضـــابط الذي عاد وتمركز في اســـتحكام متراســـه. كرر طلقة أخرى من بندقيته. أودت بيد المقاتل شهاب السلامة اليمنى. وقطعتها من المرفق. كأنها بترت بسكين:

- ((اســـعفوا الجريح، يا نشـــامى. ادفعوه إلى الخلف حيث النسوة المضمدات.... جرحه بليع، يخشى أن يموت نزفاً)).

أما الضـــابط القاتل لم يعرف كيف خرجت روحه من جســـده، حين فاجأته، من الخلف ((نصـــلة)) رمح. من يد المقاتل الفارس مرهج الفهد. بصق وجعل يصب اللعنات على نفسه، قبل أن يفارق الحياة.

- ((يا عمي الشيخ قضيت عليه)).

- ((أنت مبعود، ومعاقب في دينك، يا مرهج. لم تعد مثل أهل الجبل))!

- ((ماذا أخطأت يا شيخي))؟

- ((لقد طعنته من الخلف)).

رد مرهج بنبرة كسيرة:

- ((يا شيخي.....)) / وغام صوته بصوت فظيع ملأ المكان. لقد دوّت قنبلة مدفع من العيار الثقيل. أودت بثلاثة آخرين، من المقاتلين المسعفين. ولكن بعد قليل نهض أحدهم من تحت التراب كمن بعثه السيد المسيح من الموت.....ثم طغى هدير القنابل أكثر:

- ((يا شيخ جاد الكريم. ذاك المدفع الفتاك هو السبب في كل هذا البـلاء)).

التفت الشيخ القائد نحو الشمال الغربي؛ حيث مربض (الطوب). ولكن ما أن صوب نظره، إلا وقذيفة مريعة أخرى. دوت بجانبه. وصنعت حفرة عميقة. ارتفع غبارها في الجو كزوبعة هائلة. وفارس مقاتل هوى عن

ظهر جواده، ودقت عنقه جراء ضـــغط الانفجار. وخمســة مقاتلين مشــاة أعطبت أجســامهم، من الشـظايا المتطايرة.

إذن لا بدَّ، من إسكات ذاك (الطوب) اللعين.

وهجم الشــيخ جاد الكريم على رأس كوكبته، على المدفع القاتل.

كان هذا المدفع، من بقايا مدافع الكتيبة الخامسة.

- كتيبة العطفة - ولســدنته مهمة خاصـــة بحماية العطفة. ذلول الهودج ما زال في الوســط من معمعة القتال.

كان من جملة فرســان الكوكبة الغائرة، فارس قنوات المشهور وهبة جزان.

استمر الفرسان نائرين بأفراسهم، في هجمة (الغارة) المعروفة في ميادين المعارك لدى أهل الجبل. ((والسـبق لمن سـبق))! أضـحى فارس قنوات مع القائد الشـيخ جاد الكريم جنباً إلى جنـب - ((الركـاب على الركـاب)) - فانتشــر الفرســان بالحال، في الخلف لحماية ((الظهر)). كانت عين وهبة على ناقة الهودج وصاحبته، وأما الشيخ

جاد الكريم، قصـــد مربض الطوب. وقبل أن يفترقا تكلما:

- ((يا عمي الشيخ، على بالغنيمة الكبرى. العطفة من كسبي. وس-أقتل (قائد الجمل).

- ((تبقى عندك رهينة لا سبية، يا وهبة)).

- ((كما تريد، يا شيخي....)).

ثم:

- ((لِمَ نزعت لفتك عن رأســـك الحليق تحت حر الشمس يا شيخي))؟

- ((ســاســد بها فوهة ســبطانة ذاك المدفع، وأســكت صوته المرعب إلى الأبد، وأقتل سدنته إن لم يستسلموا، ولو كلفني هذا الأمر روحي، يا وهبة)).

- ((السلامة لك يا عمي)).....

ثم هدر خلفهما:

- ((الله أكبر! الله أكبر.....))!

بيد أن هديراً آخر حدث. كان هديراً هائلاً أصم. فعدة قذائف. قد انطلقت من المدفع نفسه. ولكن المسافة

التي قصـــرت بفعـل (الغـارة) حـالـت دون إيقـاع إصـــابات أخرى. وأبطلت مفعول ((المدى المجدي)). فضـــاعت س-دى، في الأرض الخالية. بعد أن فجرت الصخور، وأحدثت الحرائق.

وهبة جزان ما زال مصمماً على هدفه الرئيس. وأخذ يصـرّ على صـفي أسـنانه وهو ماضٍ على جواده.انحنى جسـمه بالكامل على رقبة(الصـميدع). لقد سـمع العطفة، بأم أذنيه، وهي تصـيح من داخل مركبة هودجها الوثيرة: دون أن تدري ما حلّ في المعركة ((شـوباش للبكب-اشـي أوغلين.... شوباش)).

((شـــوباش للســـلطان العثماني....لو .... لو... يش ش....)).

كانت تلقي هذه ال- ((شـوباشـات)) بآلية بحتة، وهي في داخل مركبة هودجها، ولكن بعد قليل حل بها ما حل بالحملة المنكوبة. إذ ســقطت غنيمة ســهلة بيد الفارس الهمام وهبة جزان. بعد أن فعل ما فعله، بسـيفه الصـلت، بمن حولها، وبقائد ناقتها....

في هذه الأثناء. كان ذاك المدفع المقصود. قد أخمدت نيرانه. لقد ظل الشيخ القائد جاد الكريم غائراً بجواده (كحيلان). وما زال نازعاً عن رأسه الحليق عمامته الناصعة. أجل بان على ظهر حصانه، وهو نائر. كالمارد المارج. أو كطائر خرافي. ورأسه المستدير ككرة مجسمة، مرفوعة على جذع متين. ظل يلمع تحت أشعة الشمس. كذروة لطود شامخ يتحرك فوق الأرض.

المدفع ارتفعت سبطانته نحو الأعلى، لتطبيق إحداثيات الرمي. غير أن قذيفته، هذه المرة، ارتدت داخل السبطانة، وانطلقت من الخلف بانفجار عكسي هائل. أودى بالطبجي، وباثنين من السدنة. والجندي الرابع كان من نصيب سيف الشيخ جاد الكريم. استمر الشيخ يتلو صلاته وأدعيته، في نفسه، ويحمد الله تعالى. ويشكر صيفه المختار، بعد أن سدَّ فوهة السبطانة بلفته. ثم تابع مهامه القتالية. ويصيح بفرسانه الصوت تلو الصوت:

- يا إخوان.... يا إخوان.... ضيقوا الخناق على العسكر.... وأفسحوا لهم المجال غرباً للهرب. فمعظمهم

أبنــاء فلاحين مثلنــا. وقــد ظلمتهم (قرعــة جرا النظام)..../ لهث وتابع:

- شــددوا الالتحام بالمتمردين على الاســتســلام، أو الفرار... اتركوا، الآن، الذين سـقطوا صـرعي سـيوفكم، وتابعوا ((كش)) المتقهقرين.

- يا شيخي، ثمة قناصة، ما زالوا مختبئين.

- مشطوا أرض المعركة بالكامل.

ثم همز بحص-ان-ه (كحيلان). ظهر على متنــه منفرداً كحصنٍ متحرّك. وتابع:

- أيها البواســـل. ادحروا الفلول المنهزمة نحو جهة النجاة. ليســلم من أراد البقاء في الحياة من رهيف شــفار سيوفكم....

ثم صوت آخر:

- ذاك الضابط قد رمى سلاحه ويمم غرباً.

أجابه صوت مجهول:

- دعه يمضِ بسلام نحو منجاته.

ثم سمع:

- يا شيخي ماذا سنعمل بالجثث؟

- سنقوم بجمعها في مكان واحد لتدفن في مقبرة جماعية. ولكن بعد الانتهاء من المعركة.

- وبعربات المدافع ؟

- استعينوا بالبغال والثيران لجرها.../ ثم فطن:

- يجب أن تحطم المدافع في أرضها.

- وبالشهداء؟

- بعد إقامة احتفال التأبين العام لهم. نغسل أجسادهم الطاهرة. ونسجيهم في مقبرة موحدة.

ثم تلاشى الكلام حين تسارع الجنود المنهزمون، بهرولتهم متزاحمين نحو المعابر الغربية المفتوحة لا يلوون على شيء. يدوسون ببساطيرهم (الهشير) وجثث زملائهم ويتركون من يئن وراءهم من المصابين والجرحى.

- حقيقة.

لقد نالوا من عناء المعركة, وتعب القتال كثيراً. الأمر الذي جعلهم مثل قطعان من الكلاب الضالة. بعد أن فقدوا كل ما كان يبدو عليهم من سيماء

العسكرية وإمارات الجندية في جيوش السلطنة وهم يرددون في نفوسهم:

((أي شيء هي الحرب))!

****

الفصل الحادي عشر

ما بعد المعركة

لم يحز الألم والحسـرة، في نفوس ضـباط الحملة العثمانية المكسـورين، وجنودهم المشـردين المنهزمين؛ ممن بقوا على قيد الحياة. وفي نفس قائدهم الباشا الخاسر الحزين الذين عاد إلى دمشـق بشـكل مزر لا نظير له؛ مثلما حزت الحسـرات والأحزان والآلام، في نفوس أهل حوران بعامة.وأهل قرية نوى بخاصـة. فشـعور مفاجئ بالرثاء غمرهم. ودارت على الألسن أس-ئلة لا تحصى:

- كيف خطفت العطفة، فرحة بنت المذيب، من قلب المعركة؟

- كيف تحطمت حملة بني عثمان على أعتاب الجبل، واندحرت عساكرها؟

- هل بلغت الحماقة مداها بوالي دمشــق محمد باشــا القبرصي، حين وضع عساكره في أتون الجبل؟

- الجبان أخلى المعركة، وولى الأدبار!

ثم:

- لعنة الله على السلطان وأتباعه. هذا المتحكم برقاب العباد كالرب!.

- هو وهم لمن القوم الضــالين، الذين ســيعاقبهم الله تعالى على ســوءاتهم وخزي أفعالهم...../ مســد خطيب جامع نوى لحيته بكفه اليمنى، وتابع:

- إن سلاطين بني عثمان، يأثمون في شبابهم، وحتى في شيخوختهم. ولا يعرفون الله إلا عند الشدائد.....

- إلى جهنم وبئس المصير!

وفي مضافة ابن المذيب حدثت (هرجلة) حادة.

كانت أشــعة الشــمس، قد تســللت من النافذة صــفراء باهتة، لتشــارك في الحزن الذي عم الناس، وفي ما اضطربت به الشفاه عن (الحدث الأعظم)؛

قال غياث الاخرس، وهو من الرجال المجتمعين:

- بصـــفتي راضـــياً عن نفســـي كإنســـان واقعي لا سـفسـطائي أقول إنه يطبق على جيراننا أهل الجبل المثل الســـــائر: ((الله مع الضـــعيف ليعتبر القوي))..../ زفر وتابع:

- فأهل الجبل على قلة عددهم، وبســـاطة ســـلاحهم. كادوا يبيدون حملة والي دمشـق - القبرصـــي - عن بكرة أبيها. لولا شـــهامتهم بفتح باب الهزيمة والفرار من جهة الغرب.

رد عليه المختار زعل السليم:

- صـــح مـا قلتـه يـا غيـاث. والله تعـالى مع الحق وينصره. وعلى الباطل فيخذلـه.

ثم تلا الآية الكريمة: ((وقل جاء الحق وزهق الباطل. إن الباطل كان زهوقاً))[١]. صدق الله العظيم -/

فتحفز من جهته خطيب الجامع وتلا: ((وكم من فئة قليلة، غلبت فئة كثيرة بإذن الله))[٢] - صدق الله العظيم -

---

١ سورة بني إسرائيل.
٢ سورة البقرة / ٢٤٩.

ثم سـوى طيات كوفيته فوق جبهته وَهَمَّ أن يسـتأنف. ولكن شهق غياث:

- جيراننـا أهـل الجبـل لم يعرف عنهم، أنهم كـانوا معتدين على قوم، أو دولـة. أو قبيلة. طوال مدة سـكناهم بجوارنا. بل هم يردون عنهم الحيف والاعتداءات....؟

- وابن سميران، يا غياث ؟

نطق ثليج العوض من الركن الغربي في المضـــافة. وكان هذا الرجل ذا طبع عدائي. لا يريد أن تسـير الأمور نحو الخير ويستعيد بحبور وبهجة تعاسـة الآخرين. أجابه غياث بلهجة قاسية:

- أ.... أ... ابن سـميران ذاك، يا ثليج العوض، شـيخ عشـــيرة (الرولى). هو من أخس شـــيوخ عشـــائر البدو وأحقرهم. يحق لأهل الجبل غزوه وقتله.../ لَهَبَ نفســـاً حاراً من حميته، وتابع:

- لقد قام النذل بغزو أهل الجبل، ونهب مواشـــيهم. وهم في أحرج ظروفهم وأصـعب أوقاتهم. في حربهم مع جيوش إبراهيم باشا. وفي أشد أيام حصارهم منه.

وسرت بين المجتمعين همهمات أخرى:

- إن شـــرف حوران أهين بخطف العطفة، في تلك المعركة الخاسـرة. قال المختار زعل السـليم بعد أن ركز على ((لب الاجتماع)). وكان قد غلى في داخله. وشـــوه الغضب وجهه من جديد.

دس ثليج العوض أنفه في الكلام ثانية:

- كان السـلطان قد جهز (للقبرصـــي) أكبر حملة عسـكرية عرفها تاريخ بني عثمان في حروب الجبل منذ مئتي عام و.... / نفخ من جوفه نفســاً طويلاً ليســتبدله بآخر. بينما المختار تسلم زمام الكلام. حقيقة معظم الناس من طينة طيبة قال:

- ولكن، يليق بما حل بهذا السـلطان من الخزي والعار، وألف تحية. وألف طوبى لأهل الجبل بنصــرهم المؤزر. / أخذ نفساً وهو مستغرق في طموح خياله:

- أي ضـــرب من الرجـال هم ؟ كـأنهم مردة من الجن...! / سـعل في منديله القماشـي. ثم أعاده إلى جيب سـترته. وتابع يدلي بإعجابه وخبرته، كرجل تخطى شبابه. بل

كهولته. تؤطر ذق-نه ولهاذمه حتى أذنيه. لحية هائلة شيباء مجعدة:

- نعم. هؤلاء القوم. ألا يخـافون الموت كغيرهم؟ أليسوا أناساً مثلنا؟..../ سكت قليلاً ممعناً أمامه واستأنف:

- لقد ملؤوا ساح المعركة جثثاًً من القتلى. وعاشت الطيور الكاسرة والوحوش المفترسة ليالي سعيدة. دون مضجرة من طنين الزنابير وفحيح الزراقم..

بينما سكت ليسترد شيئاً من هواء صدره، أخذ الكلام غياث الأخرس:

- ولا تسلوا، يا جماعة الخير، عما غنمه مقاتلو الجبل من السـلاح والعتاد والمؤمن.....، رمَعَ بأنفه ليستأنف أيضاً:

- آ.... ه..! وكان على رأس هذه الغنائم... / أسكته ثليج العوض بعد أن جثا راكعاً في مجثمه ليؤثر في كلامه:

- نعم كانت على رأس غنائمهم فتاة حوران فرحة المذيب ابنة هذه المضافة.... هذه الدار..../ وسكت

كالمغموم ؛ بل كاد يطفر دمعه. نطق صـوت مبحوح أجش. صاحبه مجهول الهوية:

- ماذا سنعمل إذا ما قتلوها. لا سمح الله بذلك؟

أجابه، هذه المرة، ابن المذيب بالذات:

- ماذا يهرف هذا الرجل؟..../ ثم تابع وهو ينتحب، بصوته الحزين. وقد برزت جوزة حلقه في عنقه النحيف. وبـانـت في وجهـه عينـاه متورمتين ملتهبتين جراء ليلـة سهاد وبكاء:

- دبروني يا أهل قريتي نوى، دبروني يا جماعة... بحب النبي ساعدوني.

انبرى له فايز الحسـين، أحد الجالسـين بجانبه. وكان قلب هذا الرجل قاسياً كالجلمد إزاء هذه المصيبة فلم يرف له جفن حزناً. يجوز أن السبب يعود إلى أن الشيخوخة قد حلت فيه مبكرة. ولهذا اضطرم رأسه كالنار:

- شـد حيلك، يا بن المذيب والبكاء والنحيب للنسـاء فقط. لا للرجال.

/ ثم انتخى وكسر عصاه على ركبتيه قطعتين. تمتم أبو (العطفة) كلمات ممزوجة بالنشيج:

- كيف ستردّون ابنتي. بل ابنة حوران. قولوا لي..../ لَعَجَ نفساً كاوياً. وأردف:

- ليس بوسعكم ذر الرماد في عيني. طالما أن أقوى حملة عثمانية سقطت متهاوية تحت ضربات سيوف أهل الجبل، وظلت بنودهم خفاقة.

نطق علوان الساحم. وكان قد أخرج من جيبه عملات معدنية:

- يا بن المذيب..../ قاطعه هذا في الحال:

- رد قروشك و(متاليكك) إلى عبك. الشرف والعرض لا يباعان بالدراهم..../ نفخ زفيراً ساخناً وتابع:

- ابنتي ستقتل..../.

قاطعه المختار:

- يجب أن نتفاؤل بالخير لنجده..../ لهث واستطرد:

- علينا ألا نصغي إلى الدعاوات المغرضة المضللة. والسعاة المدسوسون يجب أن تقطع ألسنتهم.

وزكى كلام المختار هذا غياث الأخرس:

- العطفة في أمن وأمان عند أهل الجبل. هؤلاء القوم كرام اللحى. أصحاب نبل وكرامة وتاريخهم يشهد لهم.

كاد يحتدم (الهرج والمرج) في مضافة ابن المذيب المصاب بخطف ابنته. لولا أن أخمدهما صوت نائس حزين. صاحبه في غاية السوء ند من جانب الباب. فبعد أن تنهنه باكياً جروان المذيب شقيق ابن المذيب. ومسح بطرف منديله دموعه التي انحدرت على تلتي وجنتيه. بل سالت على لحيته الكثة. وبللت شعرها المصفر من التبغ. نطق بصوته الجريح، كصوت من يلقي رثاء على ميت. انتقى كلماته الكسيفة المتباعدة من ببن قواقع رأسه المنتفخ:

- وا أسفي على ابنة أخي... فرحة... العفيفة... الشريفة... هي رفضت أن يشد لها هودج.... وتكون عطفة....آ.... ه....! لقد انثلم عرضنا.... واندا س شرفنا بنعال الأقدام... هئ.... هئ.../ وأخذ ينتحب بصوت كليم يدمي القلوب. الأمر الذي أثار نفوس الحاضرين لوعة وأسى. نبر صوت بجدٍ وصرامة:

- يا أهل المذيب. يا جماعة امسحوا وجوهكم بالرحمن، واخزوا الشيطان... أح... أح.../ ثم نوبة سعال حادة.

وبعد انتهاء ال- (أح) عاد صوت ابن المذيب نفسه يعول من جديد:

- أنا الذي أجبرت ابنتي على القبول. استحق عقوبة أربعين جلدة..../ وصار لسانه مكنسة بحق نفسه، ويبكي براحة تامة، كرجل يتلذذ بتعذيب ذاته جرّاء جرمه. حقيقة كانت هذه الحادثة كفاجعة للجميع. من أين جاءتهم. بعد أن كانوا في قريتهم هادئين، متنعمين في مسراتهم. فطوبى وألف طوبى، لمن مات وارتحل من هذه الدنيا الخداعة....

وفي هذه الأثناء، بينما أبو المخطوفة يندب حظه العاثر ومن معه في المضافة. إذ صر الباب. ودخلت أم المخطوفة السيدة فاطمة العليان، دون استئذان، تولول بهستيرية وتمزق بثوبها (الشرش)، ذي اللون الأس-ود: ((يا حبيبتي فرحة..يا وحيدتي الغالية.... يا بنتي المخطوفة.... ليتهم م-ا (شدوا لك هودج العطفة).... ه-ِ.... ه-ِ))/

. وتنهنهت بحسرة كاوية ثم أخذت تصرخ ثانية، بعد أن دفنت وجهها المبلل بماء عينيها في منديلها كأن تريد ألا يراها أحد: ((آ... ه..! وألف آه..! لقد قتلت.... ضرجوها بالدم.... حزوا عنقها بالسكين كنعجة...)).

في الحقيقة، كثير من الحاضرين، في المضافة، قدم العذر، لهذه المرأة المكلومة بابنتها الوحيدة. فهي أم حملتها في رحمها تسعة أشهر, وجاورت أحشاء بطنها. ثم ولدتها في غمرة من الدم والألم. يحق لها أن تبكي وتولول. ولاسيما أمام الأشخاص الذين يعرفون تاريخها. حين كانت في صبا ها تلمع خديها بالدهون. وتكحل رموشها لتخفي انحراف عينيها، كفتاة حولاء، حتى تقاسمت مع ابن المذيب تلك المأساة المسماة بالزواج. ثم انتصر فيها عنفوان الحياة، وأنجبت ((فرحة)) الجميلة، كمكافأة لها في هذه الدنيا. أجل هي لم تحب أن تكون ولودة مثـل الأرانب. بل اكتفت - بوس-يلة ما - بهذه الأبنة اليانعة المدللة. وظلت خائفة في حي-اتها. وعيناها تب-ديان شجناً عميقاً. تقف طويلاً أمام المرآة، تحدق إلى صورة

وجهها الحزين قلقة هاجسة. وتتعامل مع بقايا فتينة بشيء من (المعالجة)، لتحافظ على رونقها، حرصاً على زواجها من ابن المذيب، ذي العين الشاردة - على حدّ تعبيرها. - وكم دخل في نفسها الفزع والهلع، مما كان يزحف إلى وجهها من علامات الكبر، كالتجاعيد، وبقع الكلف....

إذن، ثمة مسوغات لأن تختلط عليها الأمور، ويكون كل شيء لديها مشوشاً، فتكرّر عويلها، وقد بح صوتها:

- ((آه يا بنتي... آ.... ه..! يا فرحة الغالية! أين أنت الآن يا حبيبتي ؟ هئ هئ)).

ولكن عيل الصبر. وزجرة زاجرة:

- اهدئي يا مرأة.... كفي عن بلائك هذا.

وصوت آخر زعق من صدر المضافة:

- اسكتي، يا فاطمة العليان. الجدير بك، إزاء ما أنت فيه، أن تولي عقلك صوب الله تعالى. وتركني إلى قدره العادل...../.

وبعد أن سكت صاحب الصوت قليلاً. تابع بلهجة أقل لينة:

- يا أم فرحة اعتذر عن ارتفاع حدة صـــوتي. أنت تعلمين أنني رجل ســـاذج بســـيط... يعني الذي في داخل صدري على رأس لساني.... / أخذ شهقة واستأنف:

- لذا أقول انطلاقاً من تجربتي وخبرتي..../ وتوقف هذه المرة ليرى مدى تأثير كلامه. ثم تابع:

- إن جيراننا من ذوي الشـــهامة، وأصـــحاب الحمية والغيرة. فابنتك بخير وسلام عندهم، وأنا الكفيل يا...

عادت وقاطعته المرأة المصدومة بالصميم:

- لِمَ لا تهجمون عليهم يا متحجري القلوب، وتنقذون ابنتي ؟ كأنها لم تســمع ما ألقي عليها من كلام - صــحيح صاحب الحاجة أرعن - اردفت بصوت دام:

- أنتم هنا جالســـون لقضـــم الحكي فقط.... / نفخت كأفعى في عز الحر. و:

- آ... ه...! لماذا سـمحتهم بها، لتكون (عطف-ة) الحملـة المخ-ذولـة ؟ ألا يوجد في حوران صـبيـة غيرها؟.../ شهقت وتابعت:

- لماذا (عطفتموها)، ثم تخليتم عنها؟..... / ثم تحشـرجت بصـوتها الأبح. بل بدموعها التي تقاطرت على خديها. تذرفها غزيرة. بشـكل لم تعرف له مثيلاً، منذ أجل بعيد.

صـمتت ولوت عنقها. لقد أغمى عليها. قال زوجها ابن المذيب وكان قد اسـتعاد عقله من الوهم الذي كان غارقاً فيه:

- إن فاطمة معذورة. رشّـوا عليها الماء وأخرجوها إلى صيوان النساء.

عندئذ تسـلم المختار زمام المبادرة في المضـافة. وأبطل مفعول التحريض بكلام عقلاني:

- نحن وأهل الجبل جيران. والجار وصـي الجار. ((وتواصوا بالحق. وتواصوا بالصبر))[1].

أكد من جهته جليس آخر:

---

١ سورة العصر.

- الجار من أهل الدار..../ ثم التفت إلى الحاضـــرين بوجهه العضل المقشور من أشعة الشمس:

- لنكن واقعيين. ليس بمكنتنا إنجاز ما عجزت عنه جيوش السلطنة العثماني-ة، منذ عشرات السنين..../ نفخ وتابع.

- إذن علينا الاطمئنان إلى شهامتهم وتصرفهم النبيل مع أبنتنا.

عاد وتنهد المختار. نطق بصوت متعب هادئ:

- يا رجال حوران، يا هل السـهل المصـان. يجب أن نحسـن الظن بجيراننا. وهل ننسـى ما عرفناه من سـابق تاريخهم من إغاثة الملهوف. و... والمرأة عندهم مصـانة ومقدسة....

ثم صدق على هذا الكلام عطا العسافين. وأردف:

- علينا أن نحمد الله تعالى، الذي نصر الحق. وأزهق الباطل، في مع-ركة (قراصة)...../ زفر هواء رئتيه بقوة وتابع:

- السلطان العثماني ما فتيء بطغيانه ينهب أموالنا

بضرائبه الباهظـة التي لا تطاق. ويأخذ شباننا للخدمة الإجبارية في جيشـــه، ويبعدهم إلى بلاد الأناضـــول، والروماللي، والصرب، والبلقان آ.......ه...! يا ولدي جاسم أين أنت الآن ؟...../ وسكت ينود برأسه.

اعتدل المختار، في جلســـته متوركاً على جانبيه. ثم نطق، كأنه يريد إنهاء الاجتماع. وقد اعتراه شـــعور من الفرح:

- المهم. بل الأهم أن الأيام القليلة القادمة ســتكشــف صـــدق ثقتي بهؤلاء القوم. وللنرتقب ما ســتتمخض عنه هذه الأيام... و (إن غداً لناظره ل-قريب)!.

تفاءل خيراً ابن المذيب وأدار النقل على الجميع.

بعد ارفضـــاض الجلســـلة فطن ابن المذيب، إلى أمر هــام. فــاختلى بغرفــة خــاص-ة. وانعكف على القرآن المقدس. يقرأ أوراداً من تن-زيله الكريم ، حتى أوشـــك الفجر على الانبلاج.طبعاً، عند المصيبة يشتد سعي المرء بالعبادة، ويســـتجلي أكثر حقائق الذات المتعلقة بأســـباب السماء!

* * * * * * * * *

الفصل الثاني عشر

العطفة في الجبل

حين حلّت العطفة في قرية قنوات، على يد (مجيرها)، الفارس وهبة جزان. كانت كناية عن ضيفة عزيزة مكرمة، في بيت هذا الرجل، المعروف بفتى قنوات وفارسها الأول. فهي بعد أن ترجّلت من هودجها، الذي ما زال فوق ناقته الهجان، يخفق بسناء زينته، وبقج سجاجيده. عقر لها في عتبة داره خمسة خرفان إكراماً لعبورها بوابة الدار. أطلت على أهل الدار كبدر تمام يسطع بضوئه الفضي اللألاء. ومشت وهي تحجل رافلة بثياب زاهية الألوان، زاخرة الطيوب. ترفع أذيالها عن أقنية الدم التي دفقت من الذبائح المنحورة. ثم تهادت نحو صحن الدار بمشية وئيدة إلى باب المضافة المشرع. وجلست

في الصـــدر، على الأريكة التي أعدت لها. أســـندت خدها براحة كفها. وأخذت تحدّق إلى هذا الـ-عالم الجديد الـ-ذي حل-ت به. لا يطرف لها جف-ن. بل ســرعان ما شب في نفسها لهب الرؤى بفراق الأهل، ومخايل الغربة. وتذكرت ما اندسّ في أذينها ســـابقاً: ((إن ظفروا بك ســيشـــنقونك معلقة على شـــجرة ســـنديان، في ظهر الجبـل....)). إلى أن رَعَدَ في أذينها صـــوت الفـارس النجيب:

- ليطمئن قلبك، يا عطفة. فأنت ضـــيفة قنوات. بل الجبل عموماً. اهدئي.

فانبســـط خاطر الفتاة واســـتراحت عيناها الذابلتان الشـــهلاوان، في وجهها. اللتان لم يغمض لهما جفن منذ ليلتين على الأقل. ولتكن الدماء الســائلة التي خطت فوقها بقدميها الصــغيرتين دلالة أمنٍ وأمان لها عند (أهل الجبل الكرام).

فلا بدَّ أن دخل في وعيها أن العرض عندهم مصــان. وشرف النساء لا يساوم عليه. ولا يثلم.

كرر الفارس:

- اطردي يـا عطفـة من نفســـك كـل هواجســـك وشكوكك... فأهلاً وسهلاً بك.

وبعد أن رحب بها (معزبها) وهبة. سمع والدته ترحب بها أيضـــاً. بخنخنة صـــوتها المعروفة في قرية قنوات. ثم تقول له:

- يا وهبة. لا تتجاوز قدر الكبار من شـــيوخ أ هل الجبل..../ ثم سوت فوطتها.ودست شعرها المشعث تحتها ببساطتها المعروفة.

أجابها وهبة:

- سأذهب بالعطفة مخفورة. بهودجها، مع ثلة فرسان يتخطّرون حولها على صـهوات جيادهم، إلى دار الشـيخ جاد الكريم. في قرية الســهوة. ولتتبارك برؤيته. وتنال تهنئته بالسلامة.../ تنهد ثم تابع:

- نعم هذا واجب لم أكن غـافلاً عنـه يـا أمي. ولكن تريثُ به حتى تستريح العطفة. ويعود المقاتلون.

- على كل، عشاء العطفة سيكون جاهزاً في المساء، مع النساء المدعوات.

* * * * * * * * * *

دون شــكَّ أن نســاء قنوات المدعوات، قد لاحظن أن هذه (البنية) الجميلة وقعت في (مصـــيدة العطفة). جرّاء مهمة خطيرة وحرجة. فسـببت لها معضــلة شــائكة، بهذا الموقف الصعب. فلا غرو إذا ما بان على وجهها الحزن والألم أكثر من اللازم. وهذا مـا جعلهـا لا تنبس ســـوى خمس كلمات في سهرة العشاء: ((أنا.... واحدة... منكن... شكراً.... عفواً...))!

ولا بدَّ من أن النسوة قد قدمن لها العذر: ((فتاة حديثة التجربة، كما هي حديثة الســن)).../ قالت زليخة قبل أن تقاطعها ميثاء:

- ((أعتى النســـاء تطاطئ رأســـها. إذا ما حلّ بها، وهي في المعركة، أسـر وقتل، تحت لمع السـيوف وبرق القنا))!

- يـا أخواتي - / ردت من جهتهـا ردينـة - الله تعـالى يكون بعون هذه العطفة. غربـة أهل. وهزيمـة معركـة، وجندلة عســاكر تتطاير رؤوســهم من حولها، كأســراب حجل حطت على الأرض.

تلمظت محسنة:

- تحمد الله الذي أبقى في رأسها عقلاً.

* * * * * * * * * *

بعد أن انصرفت المدعوات استخلت أم وهبة بالعطفة:

- يا بنيتي تعالي إلى مخدعي الخاص. وستنامين معي، لا كضيفة فحسب. بل كابنة غالية على قلبي))..../ ومدت لها يديها العجفاوين. لاكت العطفة شفتيها اللمياوين الداكنتين بمرارة: ((شكراً، يا جدتي)).

وراحت تكفكف بعض الدمع. ثم تابعت وأم وهبة تنظر إليها بحنان: ((لا شكَّ في أنك أم ثانية لي.... هئ... هئ....)) وانتحبت.

ضمتها أم وهبة إلى صدرها. وأخذت تدهدهها. كما تدهده الوالدة طفلتها. وبعد أن هدأت أرادت أن تقدم لها شيئاً من الحلوى، كعادة الأطفال. فهّمت وأحضرت لها جفنة الدبس العنبي.

فتألق ثغر الفتاة بالرضاب وهي تشرب الدبس وتمتصه بشفتيها. ثم نامت على زند أم وهبة كبنية صغيرة. نظرت هذه إليها. رأتها كملاك طار من الجنة.

وحط في حضنها. ابتسمت لها عدة مرات. وتوركت بها قليلاً لتستريح . وعندما اشتدّ نومها غمرتها بلحاف من الصوف.وتركتها تغط في نوم عميق عميق. لم تنم مثله من قبل.

* * * * * * * * * *

غبّ يومين. كانت كوكبة، من فرسان قرية قنوات. من الذين أزالوا عنهم غبار النقع، واستجموا راحة بعد المعركة وعنائها. كانوا يحفون بهودج العطفة في طريق متعرجة، بين قريتي قنوات والسهوة. قد تلوت وتثنت كثيراً بفعل الهضاب والوهاد وأخاديد الأودية... ولكن على الرغم من صعوبة المسالك. تسابق الفرسان على صهوات خيولهم ؛ بخاصة منهم الشبان، حول ناقة الهودج. يأمل كل منهم أي يحظى، من العطفة، بابتسامة، بنظرة ؛ أو بلمحة على الأقل:

- هأنذا أمامك، يا غادة حوران، (أرزخ) بحصاني وسيفي ورمحي.... / وانطمست بقية الكلام، من الفارس الشاب هادي الشاهين؛ حين عرد بجانب فرسه حصان

صـــديقه ســـعيد الحمدان، وشـــبَّ إلى الأعلى، وكرر صهيله، ليلبي طلب فارسه في (الحنجلة).

ثم:

- يا سعيد، لا تزحم ناقة العطفة.

- اطمئن يـا هـادي / ونـار الفـارس الفتى بجواده المحجل كالريح. ودار حول الهودج. ثم انطلق إلى الأمام كالسهم. لقد بدت حركات كثيرة، من هؤلاء الفرسان، بما يتلاءم وروح الشباب لديهم. وقبل أن تطل عليهم سطوح العلالي في قرية الســـهوة، انطلق جميع الفرســـان بحداء فروســـي خاص، على ألحان (مجوز القصـــب). وإيقاع الطبلة. رددّت أصــداءه أدغال الســنديان والزعرور، في كل الجهات....

سمع فرسان قرية السهوة الحداء، فأبوا إلا أن يقابلوه بمثله. والتقوا جميعاً خارج القرية بموكب العطفة، وبقائد هودجها الفـارس المعروف وهبـة جزان، وهو يمتطي صهوة جواده (الصميدع) بزهو وفخار.....

ثم رحب (المعازيب) بالضـــيوف الكرام وبالعطفة: ((أهلاً بكم وبمحملكم...)).

- ((على الرحب والسعة في سهوة الشيخ جاد الكريم، يا ضيوف)).

- ((هلموا الديار خلاكم ذم))

عندئذ اندمج فرســـان الفريقين في حداء واحد، على رهج الطراد، وأصوات زغاريد النساء و(هيهياتهن). هنا نســيت العطفة نفســها فتحمســت وانطلقت تصـــدح ب-(هيهيات) أخرى. كما كانت تطلقها في المعركة. ولكن هذه المرة خصّــت بها فرســان أهل الجبل. وعندما أقبلت على دار الشــيخ جاد الكريم. انشــدت أهزوجة بصــوتها الجميل. منها:

جـيـنــاكـم يــا شـــــيـخـنــا جـيـنــاكـم

مضـــــافـة وعـلـوة وقـدامـهـا لـيـوان

جـاد الكريم يــا شـــيخ المشــــاريخ

رايتـك شـــــامخـة يـا عــالي الشـــــان

يـا فـارس الفرســـــان في المعـارك كلهـا

بعمــامتــك البيضــــــاء عــدل الميزان

ولا تـدري هـذه الفتـاة كيف انبرت تلهـب النفوس، وتشـعل الحرائق، في أفئدة فرسـان الموكب غيرة وحمية. واعتبرت نفســها في قريتها نوى، وهي تتعالى بصــوتها المرنان. كأنه آتٍ من السماء. وهكذا عاد من جديد ضرام النخوة يتـأجج بشــكل منقع النظير، لـدى الجمـاهيـر المحتشــدة أمام دار(الســهوة). وانتظم الشـبان، بخاصــة منهم، في دبكة (الســحجة) المشــهورة في الجبل. وكانت (هوســـة) عظيمة. دوت أصـــداؤها في الأرجاء كلها. ثم انخرط في الأخير الكهول والشـيوخ، من شـدة الحماسـة. وكأنهم ملوا الاصــطبار. وتذكروا أيام شــبابهم وراحوا، يـدقون الأرض بكعـاب نعـالـهـم. ويهزون بـأكتـافهم المرتصّة المشدودة إلى بعضها بعضاً. فترتعش عضلات صـــدورهم، كلوحات تتراقص على ســطح الماء. لوّحوا كثيراً بمناديلهم وهم يصيحون:

- ((هييه .... هييه))!

و:

- ((شـــد حيلك. يا شـــيخ محمود.... هاي! هاي... جئتك))!

- ((عندك... عندك... يا شـيخ سـالم. لعينيك، أنا على يمينك)).

ثم:

- ((هاي...! هاي... تيع... تيع. اركع... اقفز... فوق. تحت.. هه... هَه...))!

وكانت سـاعة رهيبة. مشـحونة بأقصـى درجات النبض والحيوية. لم تشـهد لها مثيلاً قرية السـهوة، منذ عشرات السنين.

يا للهول! ما هؤلاء القوم؟ كأن تؤيدهم قوة خفية في حيواتهم وحروبـهـم! أطلـت العطفـة، بعـد أن هـدأت ((الحركة)) من شـباك هودجـها. وابتسـمت للجميع. وأخذت تحييهم وتمحضهم إعجابها.

((وأعطفي يا عطفة)). نعم هؤلاء الناس. لا يختلفون عن أهلك في حوران القريبة منك. فاللغة نفسها. والأغاني الشعبية متقاربة. والعادات. و....

وفي صحن الدار استناخت ناقتها. وترجلت من خدر هودجها. وخطت فوق الدم ثانية، الذي دفق من نحور الخراف الخمسة عشر، التي عقرت إكراماً لقدومها. وستقدم لها، في وليمة غداء.

- ((أنت في حصن حصين يا عطفة الخير.أنت في الجبل، وبين أهله ضيفة معززة مكرمة.... لا دخيلة، ولا أسيرة، لا سبية...))./ تكلم الشيخ جاد الكريم - المعزب - وهو يرحب بهذه الضيفة الحديثة السن. تقديراً لفتوتها وأنوثتها.

وأردف ثانية، ليزيد في نفسها الإيناس والاطمئنان أكثر وأكثر.

بل:

- تحسبين نفسك أنك تقمين بين أهلك وذويك..../ عدّل بقامته المدي-دة قليلاً. وخطا نحوها خطوتين:

- نحن لن ننسى (جيرة) أهل حوران الطيبة. ولن ننسى معروفهم معنا؛ عندما نقلوا لنا أخبار الحملة الظالمة.......

طبعاً، تلكأت العطفة في الرد خجلاً. كيف لا، ويكلمها رجل مهيب أكل مع الدهر وشـــرب، لـه هيئـة وقورة. شـــارب غليظ يحزم لحية بيضـــاء غزيرة امتدت على صـدره. وملأت القسم الأعلى منه. ورأس كبير مستدير، يعتمر بلفة ناصعة مدورة.تسطع تحت أشعة الشمس، مثل قبة جامع (نوى).

فلا غرو، أمام هذا الرجل القارح، أن تنســى العطفة، هذه الفتاة التي ما زالت في عمر الزهور، وبواكير ميعة الصبا، أن تنسى شخصيتها حين ألقت القصيدة عن ظهر قلب.... أخيراً نفخت من فمها الدقيق نفساً بشدة وتبعثرت كلمات بحروف متباعدة على شفتيها:

- شـكراً.... يا عمي الشـيخ.... جاد.... الكريم... أنا... ابنتكم... وأ... أ... / ولكن عاد الشـيخ جاد الكريم أسـعفها حين أرتج عليها:

- ستكونين قريباً في دار أبيك ابن المذيب. وتحضنك والدتك فاطمة العليان.../ تمهل قليلاً ثم استدرك:

- سيتم هذا بعد أن ترجعي إلى دار الفارس الشجاع الشهم وهبة جزان، الذي أتى بك، من المعركة، وحماك....

ثم التفت نحو الجموع المحتشدة، في المضافة، والأروقة.وكل منهم قد أصاخ سمعه جيداً بفضول شرهٍ، لهذه المخاطبة غير المتكافئة. التفت نحوهم. وقال بلهجته الرصية:

- أيها الغانمون. لا تنسوا اصطحاب العطفة إلى قنوات، بعد تناول الطعام.

* * * * * * * * * *

الفصل الثالث عشر

أهل العطفة في الجبل

- من الطارق، في هذا الليل البهيم؟ / وجال عينيه في الغبشة باحثاً عن عصا؛ وقد تملكه الرعب.

- افتح يا بن قنديل. / ثم اكتفى بصـــوت مبحوح: ((كيف الصحة))؟

- والله هذه اللهجة أعرف أصـــحابها. فأهلاً وســـهلاً بابن الجبل.

وفتح ابن قنديل بوابة داره الكبيرة المســـورة، بجدار حجري عالٍ؛ كأنها قلعة رومانية. فتح البوابة للفارس الجبلي الملثم المعتلي صهوة جواده.

- انزع لثامك، وترجل، لأتعرف إليك ، على ضـــوء (الفنار). /ثم سوى ابن قنديل فتيلة المصباح الضئيل بيده، وصاح بأعلى صوته:

- أواه...ه...! هذا أنت، يا أبا العســـاف؟... /وبعد الذهول أردف:

- على الرحب والسعة.

وقاد ضـيفه الليلي، إلى المضـافة. بعد الجلوس جرت أحاديث حميمة بين الرجلين:

- حتماً مجيئك، في منتصـــف الليل، يدل على أنك رسول، من صديقي.../ قاطع الضيف (معزبه):

- وهو كذلك.

- هاتِ ما تنقله لي، من أخباره.../ ثم اســـتدرك ابن قنديل:

- ولكن قبل أن تنطق بكلمة واحدة، أرجو أن تتقبّل. وأهل الجبل الأشـاوس، أحر التهاني من أهل حوران كافة بهذا النصر المبين. الذي احرزتموه على الحملة العثمانية.

- النصـــر مشـــترك بين الجيران، يـا (معزب) الرحمن... / ثم تـابع الضـــيف بعد أن زفر الهواء الذي احتبسه.

- أهل الجبل لا ينسون مساهمة أهل السهل. وبخاصة مساهمتك أنت شخصياً، يابن قنديل.../ تنهد بل سعل في كفه (أح....) مـا زال مجهداً، من آثـار الســـفر الليلي. استأنف:

- نعم لقد سلمنا من هول حملة غير مسبوقة عساكر وعتاداً.... هييه...! ثم انقلب الشـر على المعتدي... أح.... أح../ جلى الضيف حنجرته مرة ثانية وتابع:

- الحمد لصاحب الحمد وحده الله تعالى...

وبعد إعادة وصـــف معركة قراصـــة. ودحر الحملة العثمانية حتى قرية (تبنة)، خلص ابن قنديل إلى ســـؤال ضيفه:

- ما هو الغرض الرئيس من طروقك بابي في حالك هذا الليل؟

- معي تكليف برجاء لك يابن قنديل من شـــخينا وصديقك....

- نعم.... نعم. تفضل.

- أن تقوم بمهمة إلى آل المذيب بقرية نوى...

- على رأسي وعيني الاثنتين.

ثم عشاء خفيف، في آخر الهزيع. ونوم يسير. وعندما صـاح الديك، في قن الدار. نهض الرجلان. وغادرا قرية (رخم) في اتجاهين متعاكسـين: ابن قنديل غرباً وأبو العساف شرقاً.

* * * * * * * * * *

بعد ست ساعات سير متواصلة. دخل ابن قنديل ظهراً دار ابن الم-ذيب، التي تتوسط قرية نوى. وفي المضافة الواسعة المفروشة بالسجاد والبسط المحووكة برسوم ملونة. كأنها قطعة من حديقة ورد. تحدث منفرداً إلى صاحبها:

- يا بن المذيب. أنا مكلف كرسول، من قبل الشيخ جاد الكريم، القائد الهمام لرجال الجبل الأشم، في معركة قراصة....

امعن ابن المذيب في وجه محدّثه. لم يكن مشعوذاً أو دجالاً لا... بل رجل جاد فيما يقوله. بلعَ ريقه وأفرد وجهه:

- يا بن قنديل. وصلتنا أخبار انكسار الحملة. فه-ات ما عن-دك من غير (طولة شرح). والله قلبي على نار.... / زفر. وتابع:

- قلبي مرجل يغلي فوق أتون. ماذا أقول...؟ ليتني لم أطع... / قاطعه ابن قنديل:

- العطفة بخير.تعيش عند أهلها. هؤلاء القوم كرام، يحترمون المرأة ويحافظون على العرض والشرف....

- شكراً لك يا بن قنديل. لقد سكبت ماءً بارداً على قلبي. أو ثلجاً من ثلج قمة (قليب) الجبل.

- اطمئن. والشكر ليس لي. بل لأهل الشهامة وأصحاب النبل والكرامة!

* * * * * * * * * *

في اليوم الثالث، من لقاء ابن قنديل ابن المذيب. انطلق من قرية نوى جمع غفير، من الذين دعاهم ابن المذيب، من وجوه قرى حوران، رجالاً ونساء. بعد أن نقل

إلى علمهم ما حملـه إليـه رســول ((أهل الجبل)).
انطلق ما يقارب مئة رجل ومئة امرأة. امتطى الرجال الخيول، والنسـاء جمـال (الهجن) المزينــة بــالحـدوج و(الدنادش)، وفجات الصوف المزركشة بمختلف الرسوم اليدوية الملونة وبتخاريم الإبرة ونمنمات الصنّارة.

يمم الجميع جهـة الشــرق، نحو الجبـل. قريـة قنوات مقصدهم. و((على الله قصد السبيل))[1]. نعم حيث تقيم ابنتهم (العطفة). لذا ســاروا بســرعة في ســفرهم الميمون. كأنهم محمولون على بســاط الريح وصَــدَحَ حداؤهم يدّوي في السفوح والهضاب. حداء الفرسان الخاص براكبي الخيل:

يــا راكـبــي الــخـــيـل عوجوا على ابن جزان

حــمـاه الله مــن الــويــل يســـلم كبيـر الشـان

يــا راكــبـي الســبــايــا ضـــمـر وبـهــا هـدايــا

الـعطفــة عنــد الـنخــايــا محمـيـة بسـيوف وسـنان

* * * * * * * * * *

---

[1] سورة النحل /٩/.

ثم الأهازيج الخاصة بنساء حوران. وقد تعالت خلف موكب الفرسان، على إيقاع المزاهر والدفوف. والنسوة يتدهدهن في سردهن ((ومحافهن))، على أسنمة (الهجن). كأنهن يتماوجن فوق مراكب تمخر في بحر.

أجل لقد وصلت الأغاني إلى هضاب الجبل. وامتدت إلى ما وراء شماريخ ذراه ومنها:

يا راكبات الهجن   يم العطفة نوخن

جاد الكريم شيخنا   وابن جزان حامي الظعن

حوران والجبل سوا   بكل المعارك والمحن

* * * * * * * * *

بعد هنيهة. انطلق حداء مماثل، من قرية قنوات على ألسن الرجال والنساء معاً. لقد كان قد التأم لفيف من قرى الجبل، في دار وهبة جزان، لاستقبال (الضيوف). وعند الملاقاة الحميمة.كانت ساعة رهيبة، من ساعات النخوة والأهازيج الحماسية. ثم ترجل الجميع (معازيب)

وضيوفاً. وأخذت التحيات تفيض. وقبل السلام تزق على الوجوه. بأقصى ما تكنه القلوب البيضاء من صفاء ومحبة. بعد ذلك توزع الضيوف على الأسر أصحاب المضافات، في قنوات، لتناول الطعام ثم الخلود إلى الراحة والنوم.

ابن المذيب كان بضيافة وهبة جزان بديهة.

وبديهة أيضاً!

جرت بين الرجلين أحاديث شتى. تضمنت الشكر والثناء. و....

ثم اجتمع ابن المذيب. بابنته (فرحة) - العطفة - قبلها وبللها بدموع فرحه. نطق بفم مملوء بالبهجة: ((قلبي عليك يا بنيتي. وكم أنا مدين لهذا الفارس الندب الشجاع)).

- يا أبتِ إنه في الغاية من الشهامة والنبالة.

- آ.... ي! و.... / قاطعته ابنته، متابعة:

- أنا كنت في صون وكرامة، بحمى ابن جزان، وبحمى أهل الجبل الكرام....

- نعم. هم أصـــحاب نخوة وحمية. وحافظو العرض والشرف، ولا سيما في أيام الوغى.../ ثم شهق وتابع:

- قولي لي يا بنيتي. ما الوسيلة التي سنتبعها لمكافأة هؤلاء القوم على معروفهم.

-..... / العطفة لم تجب والدها. إذ تشـــاغلت بدخول والدتها، وبصحبتها أم وهبة:

- أنا لم أشـــبع منك رؤية يا فرحة..../ انتحبت أمها فاطمة العليان. ثم تابعت بعد أن هدأت:

- أجل لم أشبع من رؤيتك وشميمك يا بنيتي.

و(غفت) عليها ترصع خديها بالقبل التي تحرق.

بلى لم تشـــبع هذه الأم من ابنتها، حين التقتها فور وصولها دار وهبة جزان بغرفة خاصة.

التفتتْ فرحة نحو أمها وقالت:

- الحمد لله. أصـــبح لي، في هذه الأيام، والدتان, أنت وجدتي أم وهبة. ابتسمت أم وهبة:

- أبداً. لن أنســـاك، يا ضـــيفتي العزيزة، وابنتي الغالية.... ولنجلس.

وبعد أن جلســـت أم فرحة بجانب ابنتها. والكل ينظر إليها. ظلت غير مبالية بأحد. بل حضـنت ابنتها، من جديد وأخذت تضغط على رأسها وعصابتهـا. وكادت تغير من وضع طرحتها, وتكشف شعرها الأسود المسدول، الذي كانت قد رجلته جيداً، صباح هذا اليوم السعيد. وضمختها بطيوب الند، والزغفران... ثم تلقت سيلاً من القبل.

- يا... ه! ما هذا يا أم فرحة. / نطق ابن المذيب نفسه.

لم تردّ أم فرحـة على زوجهـا. بـل واصـــلـت بـث عواطفها.

* * * * * * * * *

ثم في مخدع النوم. الذي كان مخصـصـاً للعطفة وأم وهبة. اســتضـــافت فيه العطفة، هذه الليلة، أمها. وجرت أحاديث مطولة بين الاثنتين، اســـتمرت حتى صـــاحت الديوك. تمكنت العطفة من أن تبوح إلى أمها بالســر الذي لم تجرؤ على إعلانه أمام والدها.من المؤكد أن كلامها كان مشفوعاً بالعتاب الرقيق:

- يا أمي كيف حال عمار؟ ألم تعلمي أنني بشـــوق إليه؟ لماذا لا تدعونه إلى الحضـــور معكم لأراه؟..../ تنهدت بحرقة وتابعت:

- فأنا ما زلتُ خطبه وهو خطبي. أجدني اســـتظهر ملامحه في نومي ويقظتي، و.../ تكلمت العطفة كثيراً. وبكت كثيراً إلى أن كفكفت أمها دموعها بمنديلها الناعم على خديها الأسيلين:

- كفي يا فرحة عن الانتحاب. يســـمعنا أهل الدار.... يلعنني الله إذا كنت قد قصدت إبعاده عنك..../ نفخت زفير رئتيها بشدة. وتابعت:

- وعمار بن الأحمد. الله تعالى يكون بعونه صـــار يتخيل الأشــباح ويخاطبها من عظم مصـــابه يابنيتي، كاد يفقد عقله المســكين.... ثم ارتمى طريح الفراش من شــدة وجده وحزنه عليك..../ سلعت في كفيها واستأنفت:

- يجوز أن يجن على (ليلاه).كمــا جن قيس ابن الملوح، في زمانه.... بالمختصر. وضعه الصحي لا يسمح له بالسفر....

* * * * * * * * *

على كل حال ((العتاب والجواب)). وصل شيء منه إلى أم وهبة. وهذه، بدورها، نقلت ما وصـــلها إلى ابنها، مع توصية هامة:

- بلغ هذا الأمر للشيخ جاد الكريم.

طامن وهبة رأسه: سمعاً وطاعة،.... ولكن اعذريني يا أمي حتى ظهر اليوم.

كان قد اســتعد لإنجاز وليمة كبيرة. لم تشـــهد مثلها قرية قنوات من قبل. نحر فيها أكثر من عشـــر خرفان، و(مناســف) الطعام ســتعرم باللحم والبرغل وتضــمخ، كالعادة، بالســمن و(المليحية). ســيقدمها للرجال ومثلها للنساء. و((افلحوا يا كرام حياكم الله)).

طبعاً. كان على رأس المدعوين الشــيخ جاد الكريم، الذي وصل من قريته السهوة مع صحبه. فالضيوف من حوران. أصروا على حضوره في هذه المناسبة، ليتعرفوا إلى هذا الشخص الذي ذاع صيته، كأسطورة.

* * * * * * * * *

الفصل الرابع عشر

زواج العطفة

بعد انتهاء تناول الطعام في دار وهبة جزان. اختلى هذا بضـــيفه الكبير بعض الوقت. وجرت بين الرجلين محادثة قصيرة. ثم عودة إلى المضافة:

- أيها الســـادة الأكارم. نقل إلينا أن العطفة مخطوبة. وهذه الفتاة أصبحت ابنتنا. كما هي ابنتكم. فنريد أن نفرح بها. ونقيم لها عرساً في ربوعنا......

- هذه الشميلة صغرى شمائلكم يا شيخنا جاد الكريم ....

- العفو من الله تعالى،..../ توقف قليلاً الشـــيخ جاد الكريم. ثم استأنف كلامه بوقاره المعتاد:

- أين خطيبها؟

- غداً سـيكون بين يديكم الكريمتين يا شـيخنا../ نطق ابن المذيب. ثم التفت إلى جليسه في صدر المضافة، وابن قريته نوى (غياث الأخرس):

- غياث. وأنت غياث كاســمك. امتط (الحمراء)، في الحال إلى نوى. وعد في ظهر الغد بصحبة عمار.

- كما تأمر يابن المذيب.

* * * * * * * * *

كان عمار الأحمد الملتاخ على خطف خطيبته، قابعاً في دهليز حزنه وابتئاســه. لا يغادر داره.منذ أن حلت به هذه الرزيئة العظمى. يفيق من نومه يجد نفســه في بحر شــتاتٍ ذهني.. يطل من النافذة. ويهمهم كلمات معجمة. كمن فقد عقله. وضـعه مدعاة للشـفقة. على كل حال، لكل معضلة حل. ولكل ضيق فرج، في هذه الحياة الدنيا:

- بشراك يا بن الأحمد. بشراك....

لم ينتبه عمار الأحمد لما قاله غياث الأخرس. بل لم يشعر بوجوده.

- ساعديني يا أم عمّار على ابنك المملوخ. لأنقل إليه

هذه البشرى المفرحة عن خطيبته،(فرحة).

وبالسليقة. كرر غياث، على مسامعها ومسامع ابنها هذا الاسم (السعيد):

((فرحة..... فرحة)). الأمر الذي دعا عمار الأحمد أن يستعيد ذبذبات شعلة ضئيلة من ذاكرته. ويصيح بأعلى صوته ((فرح-ة.... أين هي فرح-ة))؟

وكانت فرحة عارمة. من نوع آخر، قد تحصلت في نفس أم عمار. فراحت توحوح بطريقة صبيانية كولد نال مكافأة.

أما غياث فمن فرحته بكى ثم:

- يا عمار اهدأ، وعد إلى رشدك....

- ها... ه..! أين فرحة؟... قل لي يا غياث... أين هي زهرتي الجملية؟ / وأخذ يتنهنه ببكاء صامت مؤثر يحطّم القلب! وعلى الرغم من ذلك عاد وابتسم غياث. فالفتى المخبول قد عرفه. ونطق اسمه... لقد عاد إليه عقله:

- إنها بخير وسلام، عند أهل الجبل الكرام، يا عمار......./ توقف وشهق وكأن عب مع هواء شهيقه كل

سعادة عمره:

- إنهم ينتظرونك ليزفوك إليها.

قهقهه عمار ضـــحكة مجلجة. كأنه وقع تحت تأثير خيال عظيم. تأتأ يريد أن يبوح أكثر بما في صدره.

- تا.... تا.../ قاطعه غياث:

- غداً ســتكون عريســاً مصــبوغاً بالحناء، بجانب عروسك؛ وستعود إلى هنا.

وبــالتــالي تمكن غيــاث الأخرس أن يقنع بمنطقــه الخاص عماراً. ويســـتبدل حزنه بالابتهاج ولون وجهه، الذي كان قد شـــحب بصـــفرة الأموات، بلون مشـــرق زاهٍ.كأنما تشرب بحمرة الورد.

- والآن... اذهب إلى غرفتك. ونم حتى وقت السرى,

افتر ثغر عمار:

- هل استطيع النوم يا..؟

- على كل حال، سنكون ظهر الغد في قنوات....

* * * * * * * *

وقنوات هذه كانت في الوقت المحدد، مملوءة بحشود المدعوين. وتماوج الناس حول مركبة العروسين:

((عمار الأحمد، وفرحة المذيب)) ..

وتراكض الصبية كسرب من العصافير وتعالت الأهازيج. وهدرت الطبول. ترج منها طبقات الهواء فوق قنوات. ليتردد ترجيع صداها في السفوح وجلالي الكروم. وأدغال البطم والسنديان والزعرور. ثم تتداخل مع ألحان (المجوز) القصبي، وأصوات الشبان. وهم يتناخون بدبكتهم الجبلية العتيدة. يضربون أرجلهم بعنف. حتى ضجت الأرض تحت أقدامهم.

كما أن الصبايا الجبليات الوديعات رحن يتمايلن بحلقات رقصهن الخاص ؛ وهن يتهفهفن بتنانيرهن المقصفة الزاهية كأزهار الربيع. يمثلن بها حديقة حية، تمور بالألوان والظلال.

في الحقيقة. الكل من أهل الجبل،شباناً وصبايا. رجالاً ونساء. قد أدى الواجب كاملاً في هذا العرس البهيج المشترك.

وفي الســـهرة. اســـتمع الجميع لعازف الرباب. الذي شنف الآذان بألحانه العذبة، وقصيده الجميل عن العطفة، الذي ذاع صـــيت جمالها على ألســـن الناس في الجبل والسهل. ومنها:[1]

لــدّ فرحــة بتشـــابيـب الشـــروخي

بالعمر ما جاوزت طعشـــر ربي-عا[2]

كــأنهــا اليعفور تنــدس مــا تــدوخي

نــافـراً مـن طـور حـواف م-ريـعــا[3]

معنبــات صـــبــاعهــا من دون عنـدم

والـثـنــايــا بـرق والـمــاطـر ظـ-روف[4]

---

١ نقلاً عن كتاب (قبســات من التراث الشــعبي) في جبل العرب ـ تأليف حسن نصر.

٢ لدّ: انظر.

٣ تندس: تقفز. تدوخ: تصاب بالدوار.

٤ معنبات صباعها: أصابعها بلون حبات العنب. الماطر: الدموع. ظروف: غزيرة.

أحـداقهـا ورموشـــهـا خرطوش دم دم

يـا عـذاب صـــبـي طـراد يـح-وف

كلكوس خـدودهـا في الليـل الأظلم

والثنـايـا برق والحـاجـب ســيوف)[1]

والجـذع في جيـدهـا عســجـد تلملم

معلمـات صـــبـاعهـا ســمح الكفوف

****

وعقب هذه الســهرة الطروب.اختلى العروســان، في غرفة خاصة، وتعانقا وتباثّا لواعج الهيام ببوح جنوني:

- آ...! يا فرحة. كدت أفقد عقلي من أجلك!...

اكتست وجنتا فرحة توردا بديعاً:

- وأنا يا عمار ما فتئتُ أراك في نومي وخيالي. كأني لا أصـــدق... /وقاطعها فتاها الحبيب بقبلة حارة طبعها على

[1] لكوس: جمع لكس وهو مصباح ساطع في الظلام.

الثغر المجمر. ثم قدم لها ذاك المنديل الثمين، الذي طرزته هي له. وظل محتفظاً بطياته العابقة بطيوب عطورها.

* * * * * * * * *

في اليوم التالي. درج موكب العروسين، مع سائر الضيوف من الفرسان - الرجال - وراكبات (الهجن) - النساء - وجمع غفير من أهل قنوات بالذات، إلى قرية السهوة. للوادع والمباركة، ثم عرج القفل غرباً نحو قرية المجيمر. حيث نقطة علام الحدود الفاصلة بين حوران والجبل. وثمة وداع حار بين الأهلين المتجاورين.

****

صدر للمؤلف

١- قرية رمان --- دار الإتقان، دمشق، ١٩٦٥
٢- حفنة تراب على نهر جغجغ -- اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧٨
٣- الرجل والزنزانة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٨
٤- سلاماً يا ظهر الجبل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٠
٥- المهندسون، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٣
٦- مساحة ما من العقل، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥
٧- اشتقاقات الفصل الأخير، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦
٨- خيمة تخفق تحت الشمس -- دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠١
٩-شعلة لا تنطفئ -- دار الينابيع، دمشق، ٢٠٠٤
١٠- حنين اللون الأزرق --- اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥
١١- ما بين السطور.... ما بين الصخور، دار الخير، دمشق، ٢٠٠٨
١٢- حدث في ذاك الزمان --- دار رسلان، دمشق، ٢٠٠٩

المجموعات القصصية:

١- الرقيق -- اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٥
٢- الحل --- دار ايبلا، دمشق، ١٩٩١
٣- طائر الكريم --- دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٢
٤- العالم في سهرة --- اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٤
٥- بركة الطيور --- دار علاء الدين، دمشق / قصص أطفال /، ١٩٩٧
٦- نفاد الرمل --- اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨

٧- طيوف، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠
٨- الرهان --- اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢
٩-ثمة موت آخر --- اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٦
١٠- إليك يا ذات النون --- دار الينابيع، دمشق، ٢٠٠٧

الدراسات:

١-موسوعة السويداء، مع مجموعة من المؤلفين --- دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٥
٢- من دفتر الكلمات --- دار السوسن، دمشق، ٢٠٠٧

الفهرس